

رابطة الجامعات الإسلامية

سلسلة فكر المواجهة
(١٣)

التسامح فى الفكر الإسلامى

تحرير
أ.د / جعفر عبد السلام
الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أ.د. جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

توالـــي رابطـــة الجامعـــات الإسلامية فتح ملفات العلاقات المتوترة مع الآخر، ونقدم اليوم ملفاً جديدا عن " التسامح في الفكر الإســـلامي ". لقد كلفنا العديد من العلماء بالكتابة في هذا الموضوع المهـــم الـــذي نجد الكتابات الأولى فيه كتبت من علماء من الغرب اهـــتموا بالـــتاريخ الإسلامي، وبالذات تاريخ الفتوح الإسلامية مثل Thomas Arnold ، Jostaf Lobon .... وغيرهم وغيرهم.

لقـــد قبلـــنا هذا المصطلح Tolerence لأنه صار مصطلحاً مهمـــاً فـــي الوقت الحاضر، حتى إن الأمم المتحدة خصصت عاما كـــاملا له، كمـــا اهتمـــت الجمعية العامة للأمم المتحدة والعديد من وكالاتها المتخصصة خاصة اليونسكو والإيسيسكو بالتسامح، وبذلت جهـــداً كبـــيراً في إشاعة ثقافته بين كل الناس، حتى يتعايش البشر جمـــيعاً فـــي ظـــلال السلام والتسامح والتعاون بين الناس على ما يرضـــي الله " علـــى البر والتقوى " وعلى كل ما يحقق الخير بين البشر، ويقضي على نوازع التعصب والشر بين الناس.

إن تقليـــب صفحات التاريخ الإسلامي وسيرة النبي محمد ﷺ تريـــنا أبوابا ناصعة وعلامات مضيئة حيث يتعامل المسلمون دائماً بروح المودة والمحبة مع الغير، وحرصوا دائماً على إقامة صروح لعلاقـــات قويـــة مع الكافة إعمالاً لقوله تعالى:(وتعاونوا على البر

والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)[المـائدة: 2] وقوله: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخـــر والملائكة والكتاب والنبيين وءاتى المال على حبه ذوى القربى واليـــتامى والمســـكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتـــى الـــزكاة والموفـــون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضـــراء وحيـــن البـــأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (البقرة – 177)

وهكـــذا بيـــن الرســـول بعض صور التعاون في الحياة بين المســـلمين بعضـــهم البعض، ومع غيرهم وفصّل هذه الصور من التعاون على تعمير الأرض، وإعطاء المحتاجين ما يحتاجون إليه، والوفـــاء بالعهد والصبر على المكاره، والتكافل بين البشر، واعتبر ذلك أفضل ما يقوم به المسلم سواء مع المسلمين أم مع غيرهم.

لقـــد ضرب رسول الله (ﷺ) أروع أمثلة التسامح في حياته، وســـنجد في طيات هذا الكتاب هذه الصور بشكل واضح سواء في صـــلح الحديبـــية أم في حجة الوداع أم في تعامل الرسول مع أهل الكـــتاب الذيـــن كـــانوا يعيشـــون معه في المدينة، أو في استقباله للمســـلمين مـــن أهـــل نجران أو في التعامل مع غير المسلمين في غـــزواته، وبالذات في تعامله مع الأسرى وضحايا الحروب بشكل عـــام. ولعـــل موقفه في صلح الحديبية كان مثالاً ناصعاً في إيثار السلام وحقن الدماء، والتعاون مع غير المسلمين.

أما صحابة رسول الله ﷺ فقد أكملوا ما بدأه الرسول الكريم، وضربوا أمثلة ناصعة البياض في التسامح والتعامل مع الغير بعدالة وإنصاف، ولعل عمر وموقفه من الذمي الذي ضربه ابن عمرو بن

العاص وإصراره على أن يُضرب عمرو وولد بالدرة لأحد الأمثلة التي تضرب في هذا الشأن. ونفس الشيء نجده في العهدة العمرية التـــي تريــنا كــيف قرر عمر حماية المقدسات وأصحاب العقائد الأخرى في المدينة المقدسة.

ولعــل قــراءة ســيرة صلاح الدين الأيوبي وخلفاء الدولة العثمانـــية بعد ذلك ترينا كيف سار الخلفاء على الدرب، واحترموا غيرهم وقدموا له من وسائل المساعدة في كافة الظروف، مما جعل دولـــة الإســـلام تتــبوأ مكانـــاً سامقاً في احترام الآخر، واستيعاب الحضارة الإسلامية لكل فنون الآخرين وأفكارهم وآرائهم.

إن فـــن بــناء الحضارة يتجلى بوضوح فى استيعاب أهمية التســـامح ومـــراعاة الآخر، وما يمكن أن يقدمه للإنسانية، دون أن يـــتوقف ذلك على دين دون آخر أو لون دون لون، ومن هنا كانت قـــوة الإســـلام، وقوة حضارته وتوجهها للكافة وقدره الإسلام بما يملكه من عناصر التقدم وفنون الحياة، حيث استوعب الإسلام ذلك كلــــه، ونقى العقائد من شوائب الوثنية وعفن التقليد، وانطلق بالناس وانطلقوا به مؤمنين موحدين قادرين على الولوج إلى الحياة والعمل المتقن بما يفيد الإنسان فى حياته وفى آخرته.

لذا سنجد بين دفتي هذا الكتاب مقالاً عن التسامح فى الإسلام كتبه أ.د. محمود زقزوق وزير الأوقاف المصري، كما سنجد فيه، دراســـة للدكـــتور أحمـــد النجمـــي عن سماحة الإسلام فى الجانب الاجتماعـــي، ثم دراسة تاريخية للدكتورة هدى درويش عن تسامح الدولة العثمانية مع غير المسلمين وأثره فى تقدم الحياة فيها ثم أثره

الضـــار نتيجة للإفراط فى منح الحقوق، وكيف أدى ذلك إلى تفسخ دولة الخلافة ثم انهيارها فى نهاية المطاف .

كمـــا نجـــد دراســـة للدكتور أحمد عامر يشرح فيها موقفا تاريخـــيا لدفـــاع المســـلمين عـــن اليهود الذين اضطهدوا فى ظل الحضارة الغربية المعاصرة مما يدل على عدالة المسلمين وذودهم عن الحق أياً كان أطرافه .

وتخصص البحوث التالية لأحكام قانون الحرب فى الإسلام، ثـــم لمظاهـــر التسامح فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم، للدكتور محمـــد بـــدر معـــبدي، ثـــم دراسة عن حرية المعتقد الدينى لغير المســـلمين فى ظل سماحة الإسلام للدكتور على عبد العال الشناوى واختتمـــت الأبحـــاث بدراسة للأستاذ وليد كساب بعنوان " التسامح الإسلامي بين النظرية والتطبيق ". وبعد ذلك يأتي القسم الثاني من الكـــتاب والذي يضم بعض الوثائق المهمة التي ترتبط بالتسامح في الدولة الإسلامية .

وفى النهاية ، لا يسعني إلا أن أتقدم إلى الله سبحانه وتعالى بالشكر على نعمائه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أولاً : الدراسات



التسامح في الإسلام

أ.د/ محمود حمدي زقزوق(*)

تمهيد:

الإسلام دين عالمي يتجه برسالته إلى البشرية كلها، تلك الرسالة التـــي تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وترسى دعائم السلام فى الأرض، وتدعـــو إلـــى الــتعايش الإيجابي بين البشر جميعاً فى جو من الإخاء والتســـامح بيـــن كـــل الـــناس بصـــرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم، فالجميع ينحدرون من نفس واحدة(١).

وعالمـــنا الـــيوم فـــى أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابـــي بيـــن الناس أكثر من أي وقت مضى نظراً لأن التقارب بين الـــثقافات والـــتفاعل بيـــن الحضارات يزداد يوماً بعد يوم بفضل ثورة المعلومـــات والاتصـــالات والـــثورة التكنولوجية التى أزالت الحواجز الزمانـــية والمكانية بين الأمم والشعوب حتى أصبح الجميع يعيشون فى قرية كونية كبيرة.

والإسلام دين يسعى من خلال مبادئه وتعاليمه إلى تربية أتباعه علـــى التســـامح إزاء كل الأديان والثقافات، فقد جعل الله الناس جميعاً خلفاء فى الأرض التى نعيش فوقها، وجعلهم شركاء فى المسئولية عنها، ومسئولين عن عمارتها مادياً ومعنوياً – كما يقول القرآن الكريم: ﴿هُوَ

(*) وزير الأوقاف المصري.

(١) كمـــا جـــاء فى القرآن الكريم: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ" [النساء:١].

أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦٢]، أي طلب منكم عمارتها وصــنع الحضــارة فيها، ومن أجل ذلك ميّز الله الإنسان بالعقل وسلّحه بــالعلم حــتى يكــون قادراً على أداء مهمته وتحمل مسئولياته في هذه الحياة.

ولهــذا يوجه القرآن الكريم خطابه إلى العقل الإنساني الذى يعد أجــلّ نعمــة أنعم الله بها على الإنسان، ومن هنا فإن على الإنسان أن يســتخدم عقلــه الاستخدام الأمثل، وفى الوقت نفسه يطلب القرآن من الإنسان أن يمارس حريته التى منحها الله له، والتي هي شرط ضروري لــتحمل المســئولية، فالله سبحانه لا يرضى لعباده الطاعة الإلهية التى تجعــل الإنسان عاجزاً عن العمل الحر المسئول، فعلى الإنسان إذن أن يحــرص علــى حريــته، وألا يــبددها فيما يعود عليه وعلى الآخرين بالضرر.

ومن شأن الممارسة المسئولة للحرية أن تجعل المرء على وعى بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم أيضاً، لأن لهم نفس الحق الذى يطلبه الإنسان لنفسه. وهذا لا يعنى أن العلاقة الإنسانية بين أفراد البشر هى علاقة موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدر من حريــته فى سبيل مجتمع إنساني يحقق الخير للجميع، وهذا يعنى بعبارة أخرى أن هذا المجتمع الإنساني المنشود لن يتحقق على النحو الصحيح إلا إذا ساد التسامح بين أفراده، بمعنى أن يحب كل فرد فيه للآخرين ما يحب لنفسه.

التسامح الإيجابي الشامل :

ولا شــك فى أن وعينا بأننا خطّاءون[1] يواكبه فى الوقت ذاته وعيناً بمسئوليتنا التى ترتكز عليها كرامتنا الإنسانية، الأمر الذى يمكننا من السلوك القويم المتسامح حيال الآخرين الذين يشاركوننا فى الإنسانية والذيــن ينبغــي أن يربطــنا بهــم رباط التضامن الإنساني المشترك، والتســامح – كمــا ألمحــنا – يقــوم على الاعتراف بحرية كل إنسان وكرامــته، ونحــن مطالبون أخلاقياً ودينياً أن نكون متسامحين مع كل البشــر بغــض الــنظر عــن انــتماءاتهم العرقــية والثقافية والدينية والإيديولوجية.

ولا يكــتفى الإســلام بتعليم أتباعه هذا التسامح الشامل بوصفه شرطاً من شروط السلام الضروري للمجتمع الإنساني، بل يطلب منهم أيضــاً الالــتزام بالسلوك العادل الذى لا يقبل الآخر فحسب؛ بل يحترم ثقافــته وعقيدته وخصوصياته الحضارية. وخير وصف يمكن أن نطلقه على هذا التسامح أنه تسامح إيجابي وليس تسامحاً حيادياً. وفى هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ لا يَنْهَــاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَــاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْــرِجُوكُمْ مِــنْ دِيـَــارِكُمْ أَنْ تَــبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

---

[1] فــى ذلــك إشارة إلى الحديث النبوي: "كل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"، رواه عن أنس كل من الإمام أحمد فى مسنده والترمذي وابن ماجة والحاكم فى المستدرك. (راجع فيض القدير للمناوي ج٥ ص ١٦ – دار المعرفة بيروت ١٩٧٢م).

ومـــن الملاحـــظ فى هذه الآية – وفى آيات أخرى كثيرة – أن القـــرآن لم يستخدم أسلوب الأمر بطريق مباشر، وإنما استخدم أسلوب التنبيه والتوجيه الذى يتطلب استخدام العقل الإنساني، ومن عادة القرآن أن يعالج المشكلات بطريقة متدرجة تتفق مع ثقافة كل فرد، والإسلام لا يريد أن يقول للناس كلاماً ليحفظوه ويعلموا به بطريقة آلية، وإنما يريد تربية النفس وتحقيق الذات والعمل المسئول الذي يؤدى عن اقتناع.

ويشتمل النص القرآني الذي أوردناه على ثلاثة أمور أولها: أن الله ســبحانه وتعــالى لــم ينه عن التسامح مع الآخرين، وثانيهما: أن التســـامح مع الآخرين الذين لم يعتدوا على المسلمين والتعايش الإيجابي معهم بالبر والقسط هو العدل بعينه، وثالثهما: التأكيد على أن من يسلك هذا السبيل يحظى بحب الله سبحانه وتعالى.

وبهذا الأسلوب المقنع الذي يخلو من الإكراه على فعل شئ ما أو الامتناع عنه تصل الرسالة القرآنية – رسالة التسامح – إلى النفوس فى يســـر وسهولة، وتحقق الهدف المطلوب، وهو نشر التسامح بين الناس على أوسع نطاق.

التسامح والتعددية :

ومـــن هنا لا يجوز أن ينظر إلى اختلاف الجماعات البشرية فى أعراقها وألوانها ومعتقداتها ولغاتها على أنها تمثل حائلاً يعوق التقارب والتســـامح والتعايش الإيجابي بين الشعوب، فقد خلق الله الناس مختلفين كمـــا يقول القرآن الكريم :﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هـــود: ١١٨-١١٩]، ولكن هذا الاختلاف بين الناس فى أجناسهم ولغاتهم

وعقائدهم لا ينبغي أن يكون منطلقاً أو مبرراً للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب؛ بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوع دافعاً إلى التعارف والتعاون والتآلف بين الناس من أجل تحقيق ما يصبون إليه من تبادل للمنافع، وتعاون على تحصيل المعايش، وإثراء للحياة والنهوض بها؛ ومن هنا يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:١٣]، والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التآلف والتعاون فى جميع المجالات.

وحتى يمكن الوصول إلى هذا الهدف كان لابد من إيجاد وسيلة للتفاهم وتبادل المشاعر والأفكار بين الناس. فكانت اللغة التي يتخاطب بها الناس ويعبرون بها عن أغراضهم ومشاعرهم وأفكارهم. ويُعد التفاهم عن طريق اللغة أسلوباً للتواصل بين البشر وتبادل الأفكار الذي يؤدى إلى تبادل المنافع فيما بينهم.

ولا يجوز أن يؤدى الخلاف فى الرأي أو فى الفكر أو فى الاعتقاد إلى إفساد ما بين الناس من علاقات ، وهذا ما يعبر عنه القول المشهور: "الخلاف فى الرأي لا يفسد للود قضية" ، وكما أعطى لنفسي الحق فى أن يكون لرأيي الخاص ووجهة نظري المستقلة فكذلك ينبغي أن أعطى الحق ذاته للآخر؛ فمن حقه أيضاً أن يكون له رأيه الخاص ووجهة نظره المستقلة؛ بل ومن حقه أن يكون له معتقده المختلف، فكل فرد فى هذا خليفة فى الأرض ليعمرها بالخير، ويملأها بالعلم، وينشر فيها الحق والعدل والأمن والسلام.

ولا جدال فى أن الحوار قد أصبح فى عصرنا الحاضر أكثر إلحاحاً من أى وقت مضى، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر،

ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات؛ وإنما على مستوى العلاقات بيـن الأمم والشعوب المختلفة، وإذا كانت بعض الدول فى القرن الجديد لا تـزال تفضـل شريعة الغاب بدلاً من اللجوء إلى الحوار، فإن على المجـتمع الدولي أن يصحح الأوضاع، ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى تنصاع إلى الأسلوب الأمـثل فـى الـتعامل وهـو الحـوار؛ فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النزاعات إلا من خلال الحوار.

ومـن مـنطلق الأهمية البالغة للتعارف[1] بين الأمم والشعوب والحضـارات والأديـان على الرغم من الاختلافات فيما بينها – كانت دعوة الإسلام إلى الحوار بين الأديان، وذلك لما للأديان من تأثير عميق فـى النفوس. ويعد الإسلام أول دين يوجه هذه الدعوة واضحة صريحة فـى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْـبُدَ إِلا اللَّـهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

ولـم يكـتف القرآن بمجرد الدعوة إلى الحوار بين الأديان، بل رسـم المـنهج الذى ينبغى اتباعه فى مثل هذا الحوار. وذلك فى قوله تعـالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

أما الحكم على الآخرين الذين يشاركوننا فى الإنسانية فيجدر بنا أن نـتركه لله جل شأنه. وخير لنا بدلاً من ذلك أن نجتهد فى أن نسلك

---

(١) كما جاء فى الآية الكريمة: " وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا" [الحجرات:١٣]

حـــيالهم مسلكاً عادلاً متسامحاً طالما لم يسيئوا إلينا. فالدين لا يحفل إلا بالأعمـــال الـــتى نتحمل نحن مسئوليتها، ولهذا يقول القرآن الكريم فى موضع آخر: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْـــدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّـــةَ بَيْنَـــنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَـــعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى:١٥].

التسامح الدينى :

ونظـــراً لمـــا للدين من عمق عميق فى النفوس فإن الحوار بين الأديان لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا إذا ساد التسامح بين المتحاورين، وحـــل محـــل التعصب المعتاد بين أتباع الديانات المختلفة. وقد حرص الإسلام كل الحرص على تأكيد هذا التسامح بين الأديان بجعله عنصراً جوهرياً من عناصر عقيدة المسلمين.

فالأديـــان الســـماوية جميعها تعد – فى نظر الإسلام – حلقات متصـــلة لرسالة واحدة جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله على مدى الـــتاريخ الإنسانى، ومن هنا فإن من أصول الإيمان فى الإسلام الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وما أنزل عليهم من وحى إلهى، وفى هذا يقول القرآن الكريم: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٥٨]

ومـــن أجل ذلك يمتاز الموقف الإسلامي فى أى حوار ديني بأنه موقف منفتح على الآخرين، ومتسامح إلى أبعد الحدود، فقد أقر الإسلام منذ البداية التعددية الدينية والثقافية، وصارت هذه التعددية من العلامات المممـــيزة فـــى التعاليم الإسلامية. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة. فقد تأســـس مجـــتمع المدينة المنورة بعد هجرة الرسول إليها على التعددية

الدينــية والثقافــية، ومـــارس المسلمون ذلك من بعده عملياً على مدى تاريخهم الطويل.

ويؤكـــد ذلك ما يعرفه التاريخ من أن المسلمين لم يكرهوا أحداً على الدخول فى الإسلام، فالحرية الدينية مكفولة للجميع، وتعد مبدأ من المبادئ الإسلامية الذى أكده القرآن الكريم فى قوله: ﴿لا إِكْـــرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وفى قوله فى موضع آخر: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

ومن القواعد الأساسية المعروفة فى الشريعة الإسلامية فى شأن التعامل مع أهل الكتاب القاعدة المعروفة: "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"، أى لهم ما لنا من حقوق وعليهم ما علينا من واجبات.

الخاتمـــة

ومما تقدم يتضح لنا بجلاء إلى أى مدى يعتبر التسامح الإيجابي – بوصـــفه تسامحاً شاملاً أو تسامحاً دينياً – من العناصر الأساسية فى تعاليم الإسلام، وبالتالي من الأهداف التى ترمى إليها التربية الإسلامية.

ومـــن هـــنا فـــإن التزام المسلمين بذلك وحمايتهم لحقوق أتباع الديانات الأخرى الذين يعيشون فى المجتمعات الإسلامية أمر يدخل فى إطـــار الـــتزاماتهم الدينـــية التـــي تقضى بالحفاظ والدفاع عن الحقوق الإنســـانية العامة للجميع، وأى تجاوز أو عدوان على هذه الحقوق يعد تجـــاوزاً أو عدوانـــاً علـــى تعاليم الدين، وهو أمر يجب على المسلمين التصدي له بكل الوسائل.

وفـــى هـــذا الإطار يفهم أيضاً حديث النبى ﷺ: "من رأى منكم مـــنكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[١].

ومن هنا فإنه ليس من التسامح فى شئ الوقوف موقف المتفرج حـــيال الظلم والقسوة اللذين يتعرض لهما أى إنسان بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو عقيدته.

وفى ختام حديثنا عن التسامح أود أن أشير إلى إحدى المأثورات الثابـــتة عن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، والتى تعد نموذجـــاً رائعاً على التسامح الإسلامي الإيجابي، فقد كان عمر يتجول

---

(١) رواه كـــل من الإمام مسلم والحاكم فى المستدرك وأصحاب السنن الأربعة أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة (راجع فيض القدير للمناوى ج٦ ص١٣٠).

كعادتــه فـــى شوارع المدينة المنورة يتفقد أحوال الرعية، فرأى شيخاً طاعــناً فى السن يتسول فى الطريق، فسأل عن أمره وعلم أنه يهودى، فحــزن الخلــيفة لما أصاب هذا الشيخ الهرم مما اضطره إلى التسول، وأمر بأن يّخصص له – ولنظرائه – معاش ثابت من بيت مال المسلمين يتــيح له حــياة كريمة، وهذا الخليفة هو نفسه صاحب العبارة الشهيرة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"[1].

ومن هذه الأمثلة – وغيرها كثير – يتجلى بوضوح مدى حرص الإسلام على الدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة بصــرف الــنظر عن انتماءاته العرقية أو الدينية أو الثقافية، وذلك كله يعــبر تعبيراً لا يقبل التأويل عن التسامح الإسلامي الذى سيظل عنوان على هذا الدين إلى آخر الزمان.

---

(١) راجع على الطنطاوى: أخبار عمر ص ١٨٢ وما بعدها – دمشق ١٩٥٩م.

سماحة الإسلام فى الجانب الاجتماعي

أ.د/ أحمد عبد المبدى أحمد النجمى(*)

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين الذي خلق البشر جميعاً من أب واحد وأم واحـــدة واختار منهم مبشرين ومنذرين لهدايتهم جميعاً إلى صراط الله المســـتقيم، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي أرسله ربه رحمة للعالمين وعلى جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين وعلى جميع الآل والصحب والتابعين.

وبعد،،

لقد جاء الإسلام لّيعلّم الأخوة الإنسانية ويبشر بالدعوة إلى المحبة والتضـــامن، ويـــبطل كل عصبية، ويسلك بالناس جميعاً طريق الخير والعـــزة، ويقـــرب بين النفوس المتنازعة والقلوب المتطاحنة والمشاعر المخـــتلفة ، ويجمـــع الناس جميعاً فى وحدة لا تفرق بين هذا وذاك، بل تسوى بين الجميع فى الحقوق والواجبات.

والـــتاريخ يؤكد أن الإسلام حقق هذه المعانى فى صورة رائعة جلـــية، ومـــن المعلـــوم أيضـــاً أن الدعـــوة إلى الإسلام بدأت بالحكمة والموعظـــة الحسنة، وحتى إذا وصل الأمر إلى مرحلة المجادلة ، فهى بالـــتى هـــى أحسن ، وهذا يدل دلالة واضحة على مدى عظم سماحة الإسلام ، سماحة لا يستطيع أى أحد إنكارها إلا إذا كان بعيداً عن الحق

(*) الأستاذ المساعد بقسم الأديان والمذاهب – كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة.

وكارهـــاً للحقيقة ، وهذا ما دعانى إلى الكتابة عن سماحة الإسلام وفى جانـــب مـــن أهم الجوانب وأقربها إلى الإحساس البشرى، وهو الجانب الاجتماعى، وقد اشتمل هذا البحث على هذه المقدمة وعلى مدخل وثلاثة مطالب وخاتمة على النحو التالى:

المدخل : مفهوم السماحة والإسلام.

المطلب الأول : سماحة الإسلام فى العلاقة بين ذوى القربى.

المطلب الثاني : سماحة الإسلام فى العلاقة مع المسلمين.

المطلب الثالث : سماحة الإسلام فى العلاقة مع غير المسلمين.

الخاتمة : وتشمل أهم المراجع والفهرس.

والله الهادى إلى سواء السبيل

المدخـــل

مفهوم السـماحة والإسلام

تجـــدر الإشارة فى البداية إلى مفهوم كل من السماحة والإسلام حتى يستطيع القارئ الكريم أن يلم بمعظم جزئيات هذا البحث المتواضع وهذه الإشارة ستنحصر – بمشيئة الله تعالى – فى هاتين النقطتين:

النقطة الأولى : **مفهوم السماحة** :

أولاً : المفهـــوم اللغـــوى: فقـــد ورد حـــول مادة سمح: (سمح السماح والمسامحة: الجود، وسَمَحَ سَمَاحَة وسُمُوحاً وسمَاحاً: جاد، ورجل سَمَح وامـــرأة سَـــمحة مـــن رجال ونساء سماح ونساء فيهما، حكى الأخيرة الفارسى عن أحمد بن يحيى.

ورجـــل سميح ومِسْماح: سَمَح، ورجال مساميح ونساء مساميح، قال جرير :

غَلَبَ المساميحَ الوليدُ سماحةً وكفى قريش المعضلات وسادها

وفى الحديث: يقول الله – عز وجل –: (اسمحوا لعبدى كإسماحه إلـــى عـــبادى)، الإسماح: لغة فى السماح، يقال: سمح وأسمح إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء، وقيل: إنما يقال فى السخاء سمح، وأما أسمح فإنمـــا يقـــال فـــى المتابعة والانقياد، ويقال: أسمحت نفسه إذا انقادت ، والصحيح الأول.

والمســـامحة: المســـاهلة، وتســـامحوا: تســـاهلوا وفى الحديث المشهور: (السماح رباح) أى السماحة فى الأشياء تربح صاحبها.

وسمح وتسمح: فعل شيئاً فسهّل فيه، أنشد ثعلب :

ولكن إذا ما جل خطب فسامحت   به النفس يوماً كان للكره أذهبا

ولقولهم: الحنيفية السمحة: ليس فيها ضيق ولا شدة [1].

وقـيل: (سمح سماحاً وسماحة: بذل فى العسر واليسر عن كرم وسـخاء، وسـمح سـماحة وسموحة: لان وسهل ، فهو سمح وسميح، وسامحه: عفا عنه، ويقال فى الدعاء: سامحك الله، ويقال سامحه بذنبه.

تسـامح فى كذا: تساهل، السمحة يقال شريعة سمحة: فيها يسر وسهولة[2].

وقـيل: "سَمح يسمح سماحاً: جاد وسمح يسمح سماحة صار من أهـل السـماحة فهـو سَـمْح وسميح، وتسامح، تساهل، وتسمح فيه: تساهل"[3].

وبالـنظر والتفكير فى المعنى اللغوى لمادة سمح، يلاحظ شموله لمعـانى: الجود والبذل والانقياد، والسهولة واليسر، والبعد عن الضيق والشـدة، وجمـيع هـذه المعانى بينها ارتباط وثيق، فالجود والبذل لا يتحققان إلا إذا سبقهما الانقياد والخضوع المشروع، كما لا يكتملان إلا بطريق السهولة واليسر بعيداً عن الضيق والشدة.

---

(١) راجع لسان العرب لابن منظور – المجلد الثاني، مادة سمح ، ص ٤٨٩ – ط الأولى – م دار صادر بيروت.

(٢) المعجـم الوجـيز – مجمـع اللغة العربية – مادة سمح – ص٣٢٠ – طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، عام ١٩٩١م.

(٣) دائرة معارف القرن العشرين – محمد فريد وجدى –المجلد الخامس – ص ٢٩٧ – ط الثالثة – م دار المعرفة بيروت.

ثانــياً : المفهــوم الاصطلاحي : يقول مسكويه: "وأما السماحة: فهى بذل بعض ما لا يحب، وأما المسامحة: فهى ترك بعض ما يحب، والجميع يكون بالإرادة والاختيار"[1].

فالسماحة إذاً هى التعامل مع الغير بسهولة ويسر ورضا عن كل مــا يبذله المتسامح سواء فعل ما لا يحب أو ترك ما يحب فالأمر عنده سواء ، فهو صاحب خلق رفيع ومروءة عالية.

النقطة الثانية : **مفهوم الإسلام** :

أولاً : المفهــوم اللغوى : (وأسلم لله فهو مسلم، وأسلم: دخل فى ديــن الإســلام، وأســلم: دخل فى السلم وأسلم أمره لله، وسلَّم أمره لله بالتثقيل لغة، واستسلم: انقاد"[2].

وقــيل: (الإســلام والاستسلام: الانقياد، والإسلام من الشريعة: إظهار الخضوع، وإظهار الشريعة، والتزام ما أتى به النبى ﷺ وذلك يُحقــن الــدم ويُستدفع المكروه، وما أحسن ما اختصر ثعلب ذلك فقال: الإسلام باللسان والإيمان بالقلب.

وأمــا الإسلام فإن أبا بكر محمد بن بشار قال: يقال فلان مسلم وفــيه قــولان: أحدهما هو المستسلم لأمر الله، والثانى هو المخلص لله العبادة، من قولهم سلَّم الشئ لفلان: أى خلَّصه، وسَلِمَ له الشئ أى خلص له، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويــده) قــال الأزهــرى: فمعــناه أنه دخل فى باب السلامة حتى يسلم

---

(1) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف – لابن مكسويه – تحقيق ابن الخطيب – ص ٣١ ط الأولى ، م المطبعة المصرية.

(٢) راجع: المصباح المنير للفيومى – مادة سلم – ص ٢٨٧ – م دار المعارف.

المؤمـــنون مـــن بوائقه .. فالإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به ســـيدنا رسول الله ﷺ وبه يُحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب، فذلك الإيمان الذى هذه هى صفته[1].

والمـــتدبر لهـــذا المعـــنى اللغوي للإسلام يلاحظ واضح شموله واحتضانه للمعنى اللغوي للسماحة، يفهم ذلك من خلال معاني الخضوع والانقياد والإخلاص لله تعالى ولمنهجه ولهذا لم تكن هناك حاجة لورود كلمة السماحة فى القرآن الكريم حيث أن الإسلام كله والإيمان جله بكل مـــا يشـــتملان علـــيه من معان هما الممثلات للجانب العقدي والجانب العملي لأخلاق القرآن الكريم.

ثانياً : المفهوم الاصطلاحي : تتعدد مفاهيم الإسلام لدى العلماء والباحثيـــن، ولكـــنها جمـــيعها تتضافر وتتعاون لتعطى المفهوم اللائق بالإســـلام، هذا الدين الخاتم الذى يتضمن المنهج الإلهي الذى به صلاح الدنيا وسعادة الآخرة.

الإســـلام هـــو الدين الخاتم للأديان السماوية، أوحى به الحق – تـــبارك وتعـــالى – إلـــى رسوله ونبيه محمد ﷺ فى مكة: دعوة إلى التوحيد الخالص، وكتابه هو القرآن الكريم.

فالإسلام يقوم على توحيد الله، وإلغاء الوثنية والتعدد، ونبذ عبادة الأوثـــان، والاعـــتراف بجميع الأنبياء والرسل السابقين والكتب المنزلة والملائكـــة، والإيمـــان باليوم الآخر، وقد جاء ديناً عالمياً للبشرية كلها وللإنســـانية كافـــة، قام على أساس العلاقة المباشرة بين الله – تعالى –

---

(١) راجع : لسان العرب لابن منظور – المجلد ١٢ – مادة سلم – ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

والإنســان وشــجب كل الوسائط والعلائق ، وجاءت دعوته جامعة بين الدين والدنيا، وبين القلب والعقل ، وبين الروح والمادة ومستهدفة إقامة منهج ربانى قوامه إقرار الإرادة الإنسانية، وحرية الاختيار، والمسئولية الفردية، والالتزام الأخلاقى والجزاء الأخروى.

وقــد جمع الإسلام بين العقيدة والعبادة والشريعة والأخلاق فى نسق متكامل بوصفه أسلوب حياة، ونظام دولة، ودستوراً شاملاً لصالح الإنسانية جمعاء.

والإسلام شرعاً : هو الأعمال الظاهرة من التلفظ بكلمة الشهادة، والإتــيان بالواجــبات، والانــتهاء عن المنهيات، وعلى هذا فهو يغاير الإيمان ولا ينفك عنه، وقيل: إن الإيمان تصديق قلبى، والإسلام طاعة وانقياد ظاهرى[1].

والمــتأمل لهــذه المعانى لا يغيب عنه ما تتزين به وتتجمل من ســماحة ويســر ومحــبة ووئام ، وبعد هذا الإيضاح اليسير لمفهومى الســماحة والإســلام، ننتقل – بمشيئة الله – إلى ما يؤكد هذه المفاهيم، وســماحة الإســلام ويسره وسهولته، تظهر واضحة فى كل ما جاء به الإســلام مــن عقيدة وعبادة وشريعة وأخلاق، ولا يتسع المقام لتناول ســماحة الإســلام فى كل هذه الجوانب، ولذا سيقتصر هذا البحث على محاولة إيضاح سماحة الإسلام فى الجانب الاجتماعي، هذا الجانب الذى نال عناية فائقة من التوجيه الإسلامي لتقويمه وإصلاحه، والنهوض به

---

(١) معلمة الإسلام – الأستاذ أنور الجندى – ج١ – ص٢٣ – بتصرف يسير ، ط الثانية – م دار الصحوة.

إلـــى الرقى البشرى والمثالية الإنسانية، فقد وظف الإسلام كل محتوياته لهــذا الغرض النبيل ، بل إن كل رسالة إلهية سبقت الإسلام كانت من أجــل هــذا الغــرض بالقدر المناسب ، وجاء الإسلام بالمنهج الكامل والمستمر القدرة والكفاءة إلى قيام الساعة.

فالعقــيدة الإسلامية ، والتى يمثل جوهرها التوحيد الخالص إنما هدفت فى البادية إلى إصلاح المجتمع، (وخلاصة التوحيد : حسن السير والسلوك مع الآخرين)(1).

والعبادات فى الإسلام إنما الغرض منها تهذيب السلوك البشرى وتقوية نوازع الخير وإضعاف بواعث الشر لأجل إصلاح العلاقات بين البشــر، والمتأمــل فى الآيات التالية يلحظ ذلك جيداً، يقول الله تعالى: ﴿اتْــلُ مَــا أُوحِــيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[العنكــبوت:٤٥] ويقــول ســبحانه: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَــةِ قُلُوبُهُــمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠]، ويقول جل شأنه:﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيــنَ آمَــنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَــتَّقُونَ﴾ [الــبقرة:١٨٣]، ويقول عز وجل: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧].

---

(١) واقعنا ومستقبلنا فى ضوء الإسلام – وحيد الدين خان – ص ٨٢ – ط الأولى – دار الصحوة.

فكــل العــبادات فــي الإسلام تدعو إلى تقويم الأخلاق وتهذيب الســلوك إمـــا لكونهـــا – فـــي جوهرها – تنهى عن الفحشاء والمنكر كالصلاة ، أو لكونها تدعو إلى مساعدة المحتاجين من طوائف المجتمع كالزكاة والصدقة، أو لكونها تدعو إلى التقوى التى تتمثل فى مراقبة الله تعالى فى كل حال ومع أى كائن كالصوم والحج.

والمصـــدر الأول للإســـلام وهو القرآن الكريم، كله دعوة إلى أسس الخير فى الدنيا والآخرة، وتصحيح وتوحيد لعلاقة الخلق بخالقهم، وعلاقة الخلق بعضهم مع بعض، وفيه الهداية الكاملة إلى أقوم طريق: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُـرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩].

وقـد بيـن الله تعـالى أن الرحمة فى اتباعه ، والاعتصام به: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأنعام:١٥٥]، كما بين سبحانه أن فى النكوص عنه، والبعد عن هداه، وعدم الاعتصام بحبله بعداً عن حقيقة الدين وجوهره، وانفصالاً عن الله ورسوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩][(١)].

ولما كان الجانب الاجتماعي يتمثل فى علاقة الفرد بذوى رحمه وبإخوانـــه فـــي الدين وبرفاقه فى الحياة من غيرهم، استدعى توضيح ســماحة الإســلام – فـــي هذا الجانب – تناول هذه المحاور من خلال المطالب الثلاثة الآتية :

---

(١) مـنهج الإسلام فى العقيدة والعبادة والأخلاق – د/ أحمد عمر هاشم – ص ٩١ – ط الأولى – دار المنار للنشر والتوزيع.

المطلب الأول

سماحة الإسلام فى العلاقة بين ذوى القربى

إذا أريد لأى بناء أن يكون قوياً وسليماً فلابد أن يبنى على أسس متيـنة ، والـتعهد بالإجادة والإتقان لكل مراحله، وبعد إتمامه لابد من تعهـده بالصيانة والرعاية الكاملتين والمتواصلتين حتى يكون سليماً من أى عطب على مرور الزمن وتعاقب مراحله، وإن الباحث البصير ليجد أن الإسـلام – بسماحته ويسره – نبه الفكر البشرى إلى ذلك من خلال مـنهجه المتكامل ودعوته الدائمة إلى بناء المجتمع بناءً سليماً، ورعايته رعايـة مـتكاملة متواصلة، فيلاحظ عظيم اهتمامه بالمجتمع بداية من أصغر وحدة فيه إلى المجتمع بكامله.

فسماحة الإسلام بالنسبة للعلاقة بين ذوى القربى تتمثل فى النقاط الآتية:

١- العلاقـة بيـن الـزوج والـزوجة : لما كانت العلاقة بين الزوجيـن تعتـبر هى الأساس الأول لتكوين المجتمع بكل مكوناته، فقد نالت هذه العلاقة قدراً كافياً من اهتمام الإسلام وسماحته ومما يدل على ذلـك قـول الله تعالـي: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الـروم:٢١]، "مـن تمـام رحمة الله ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة وهى المحبة ، ورحمة وهى الرأفة أو الألفـة بينهما"[١]، ولو نظرنا إلى الآية الكريمة لوجدناها قد أشارت إلى

---

(١) تفسـير القـرآن العظيم للإمام الحافظ ابن كثير – ج٣ – ص ٤٢٩ – مكتـبة التراث الإسلامى سوريا – حلب.

أهمية هذه العلاقة، فأشارت إلى أنها آية من آيات الله، وذلك فى أولها، وأشارت فى نهايتها أن فى هذه العلاقة آيات تدل على عظمها وأهميتها لمن لهم عقول تتفكر فى آيات الله تعالى وعظيم صنعه.

وكذلك يشير إلى التسامح فى هذه العلاقة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩]، (والمعاشرة: مفاعلة من العشرة، وهى المخالطة والمصاحبة، أى وصاحبوهن وعاملوهن بالمعروف، أى بما حض عليه الشرع وارتضاه العقل من الأفعال الحميدة والأقوال الحسنة)[١]، ويقول الإمام ابن كثير – مشيراً إلى مدى عظم سماحة الإسلام فى هذه العلاقة – : وقوله تعالى: "وعاشروهن بالمعروف" أى طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيأتكم بحسب قدرتكم كما يحب أحدكم ذلك من زوجته، فليفعل معها مثله، كما قال تعالى: "ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف" ، وقال رسول الله ﷺ: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى" ، وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة ، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقة، ويضاحك نساءه حتى أنه كان يسابق السيدة عائشة – رضى الله عنها – يتودد إليها بذلك .. وكان ﷺ إذا صلى العشاء يدخل منزله يتسامر مع أهله قليلاً قبل أن ينام يؤانسهم بذلك ﷺ [٢].

---

[١] التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د/ محمد سيد طنطاوى – المجلد الثالث – ص ١١٧ – ط الثانية – مطبعة السعادة.

[٢] تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير – ج١ – ص ٤٦٦ – بتصرف.

ويقـــول صـــاحب إحياء علوم الدين – رحمه الله تعالى – مدللاً على سماحة الإسلام فى هذه العلاقة : (وأعلم أنه ليس حسن الخلق معها – أى مع الزوجة – كف الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشـــها وغضـــبها، اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعنه الكـــلام، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل .. وعلى الزوج أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمرح والملاعبة، فهى التى تطيب قلوب النســـاء، وقـــد كـــان رســـول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن فى الأعمال والخلاق)[1].

فهـــذه نظـــرة ســـريعة إلى سماحة الإسلام بالنسبة للعلاقة بين الزوجين اللذين يمثلان أول لبنة فى بناء المجتمع.

٢- العلاقـــة بيـــن الوالدين والأولاد : بعد خروج الأولاد للحياة تنشـــأ علاقـــة حميمة من الوالدين تجاه أولادهما، ولكن هذه العلاقة قد تشـــوبها بعض المكدرات بمرور الوقت ، وخاصة عندما يبلغ الوالدان الكبر، وتتزايد مسئوليات الأولاد، ونجد الإسلام يحرص ويعمل على أن تظـــل هذه العلاقة منتعشة قوية يسودهـــا الإحســـان والحسن بعيداً عن الانهيار والضعف، ولا أدل على ذلك من آيـــات القرآن الكريم ، والتي قرنـــت في معظمها الإحســـان بالوالدين بعبادة الله تعـــالى ، يقول جل شأنه:﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِـــبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَـــرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

---

[1] راجـــع إحياء علوم الدين – للإمام الغزالى – المجلد الثانى – ص ٤٣-٤٤ – المكتبة التجارية الكبرى.

قال الإمام الرازى عند تفسيره للآية الأولى: (وأقول لفظ الآية مشتمل على قيود كثيرة ، كل واحد منها يوجب المبالغة فى الإحسان إلى الوالدين: أحداها: أنه – تعالى – قال فى الآية المتقدمة "ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا" ثم إنه تعالى أردفه بهذه الآية المشتملة على الأعمال التى بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة، فذكر من جملتها البر بالوالدين، وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التى تفيد سعادة الآخرة.

وثانيها : أنه تعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلث بالبر بالوالدين ، وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة فى تعظيم هذه الطاعة.

وثالثها : أنه تعالى لم يقل وإحساناً بالوالدين ، بل قال: "وبالوالدين إحساناً" فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام.

ورابعها : أنه قال: "إحساناً" بلفظ التنكير، والتنكير يدل على التعظيم، والمعنى: وقضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً عظيماً كاملاً، وذلك لأنه لما كان إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك، ثم على جميع التقديرات فلا تحصل مكافأة لأن إنعامهما عليك كان على سبيل الابتداء ، وفى الأمثال المشهورة: أن البادئ بالبر لا يكافأ"[(1)].

ويقول تبارك وتعالى ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ..﴾ [النساء:٣٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ

---

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى – ج٢٠ – ص ١٨٦ – ١٨٧ – ط الثالثة – دار إحياء التراث العربى – بيروت.

بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٨].

وعن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه قال سألت رسول الله ﷺ أى العمل أحب إلى الله قال: "الصلاة على وقتها قلت ثم أى قال بر الوالدين قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل الله" رواه البخاري ومسلم[١].

٣- العلاقة بين ذوى الأرحام : لما كانت العلاقة بين ذوى الأرحام تشوبها بعض المكدرات بسبب التقارب والاحتكاك، حرص الإسلام حرصاً بليغاً على أن يغرس السماحة والوفاق بين ذوى الأرحام، حيث أن العلاقة بين الأقارب تمثل مرحلة أساسية من مراحل بناء المجتمع، وكما سبقت الإشارة إلى أن الإسلام أهتم اهتماماً لائقاً بكل مراحل تكوين المجتمع، ولم يغفل مرحلة لحساب مرحلة أخرى، وهذه هى سمة وحقيقة منهج الله تعالى لإصلاح خلقه، وإذا نظرنا إلى سماحة الإسلام، نجد الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى اهتمت بتقوية هذه العلاقة وإصلاحها:

ومن الآيات القرآنية: قول الله تبارك وتعالى: ﴿.. وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]، وقوله سبحانه: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٥]، وقوله جل شأنه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى – كتاب البر والصلة وغيرهما – الترغيب فى بر الوالدين وصلتها – ج٣ – ص ٢١٣ – مكتبة شباب الأزهر.

أَنْ تُفْسِـدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمـد:٢٢]، وقوله عز من قـائل: ﴿فَـآتِ ذَا الْقُـرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم:٣٨]، وكذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُـرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُـنكَرِ وَالْبَغْـيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]، ومن هذه الآيات الكريمات قول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَـانًا وَبِـذِي الْقُرْبَى..﴾ [النساء:٣٦]، فجميع هذه الآيات وغيرها من الآيـات القرآنية الأخرى تدعو دعوة قوية إلى أن يسود العفو والتسامح والوفاق والوئام – العلاقة بين ذوى الأرحام ، لكى تنسجم هذه المرحلة المجتمعية مع ما قبلها وما بعدها من المراحل البنائية للمجتمع.

وبالنسبة للأحاديث النبوية – بخصوص هذه العلاقة – فهى من الكثرة بمكان، ولكنى أذكر بعضاً منها:

عن انس بن مالك – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: "مـن أحـب أن يُبسط له فى رزقه ويُنسأ له فى أثره فليصل رحمه"[1]، وعـن عـبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: "ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها"[2].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لـى قرابة أصلهم ويقطعونى، وأحسن إليهم ويسيئون إلى، وأحلم عنهم

---

(١) صحيح البخاري بحاشية السندى – كتاب الأدب – باب من بسط له فى الرزق بصلة الرحم – ج٤ – ص٤٩ – دار إحياء الكتب العربية. وصحيح مسلم بشرح النووى – نفس التخريج السابق – ج١٦ – ص١١٤ – مطبعة دار الفكر.

(٢) صحيح البخارى – كتاب الأدب – باب ليس الواصل بالمكافئ – جـ٤ – صـ٥٠ .

ويجهلـــون علـــى، فقال: "إن كنت كما قلت فكأنما تُسفّهم المنَّ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك"[1].

وأخـــرج البزار عن جابر رضى الله عنه أن جويرية رضى الله عنها قالت للنبى ﷺ: إنى أريد أن أعتق هذا الغلام، قال: "أعطه خالك الذى فى الأعراب يرعى عليه فإنه أعظم لأجرك"[2].

هـــذه بعـــض آيات القرآن الكريم وبعض أحاديث الرسول ﷺ والـــتى حـــرص كل منها على تقوية وإنماء العلاقة الصالحة بين ذوى القربى، والدعوة إلى تعاهدها بالرعاية والتغاضى عن بعض السلبيات لا لشئ من غرض او هوى، وإنما ابتغاء مرضاة الله عز وجل وطمعاً فى عظيم مثوبته وكريم عطائه.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى – كتاب البر والصلة والآداب – باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها – جـ١٦ – ص ١١٥ .

(٢) حـــياة الصـــحابة – محمـــد يوسف الكاندهلوى – ج٢ – ص ٥١٩ – مكتبة الدعوة الإسلامية.

المطلب الثانى
سماحة الإسلام فى العلاقة بين المسلمين

اهــتم الإسلام اهتماماً واضحاً بأن تسود السماحة والعفو والحلم العلاقة بين جميع فئات المجتمع الإسلامي، وخاصة وبدرجة أوضح بين الفئات التى تحتاج إلى قدر أوفر من التسامح والعفو.

ومــن هــذه الفئات ، والتى قد يتوهم المتوهمون أن الإسلام قد أغفلهــا أو لم يعطها حقها من العناية: فئة النساء والأطفال، وتوضيحاً لذلــك، سيتناول هذا المطلب – بمشيئة الله تعالى – سماحة الإسلام فى العلاقة بين المسلمين من خلال النقاط التالية:

١– العلاقــة بين المسلمين على وجه العموم : لقد ربط الإسلام بيــن المسلمين الذين يؤمنون إيماناً كاملاً، فيعملون على تنفيذ أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه برباط قوى متين وهو رباط الأخوة الإيمانية وقد أطلق عليها القرآن الكريم اسم الأخوة ، هذا الاسم الذى يعنى الأخوة فى النســب ، ولــم يطلق عليها اسم الأخوان الذى يعنى علاقة المصاحبة والمــرافقة، ليثبــت أن الأخــوة الإيمانية رابطة قوية مثلها مثل رابطة الأخــوة فــى النسب، وعبر عنها تعبيراً رائعاً يفيد الحصر ، وذلك فى قــول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠].

وروى عــن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يلثمه من كان فى حاجة أخيه كان الله فــى حاجــته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة"[1].

---

(١) الترغيــب والترهيــب للمنذرى – باب الترغيب فى ستر المسلم والترهيب من هتكه وتتبع عورته – ج٣ – ص١٧٥ – حديث رقم ٢ – مكتبة شباب الأزهر.

ولقـد جعل الإسلام للمسلم على أخيه المسلم حقوقاً كثيرة تشير إشـارة واضـحة إلـى سماحة الإسلام القوية فى هذه العلاقة، من هذه الحقوق: "أن تسلم على أخيك المسلم إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إلى مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه إذا أقسم، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، ومنها: ألا تؤذى أحداً من المسـلمين بقول ولا فعل، وأن تتواضع للمسلمين فلا تتكبر عليهم، ولا تسـمع وشايا بعضهم فى بعض، ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض، ومـنها: أن لا تزيد فى الهجر على ثلاثة أيام لمن تعرفه، وأعلم أن هذا الهجر إنما هو فيما يتعلق بأمور الدنيا، أما حق الدين، فإن هجران أهل البدع والأهواء والمعاصى ينبغى ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحـق، بعـد نصحهم وبيان الصواب لهم، ومنها: أن تخالق المسلمين بخلـق حسـن، وذلـك أن تعامل كلاً بحسب ما يناسبه، فإنه متى تلقى الجاهل بالعلم، واللاهى بالفقه ، والغبى بالبيان، تؤذى وتتأذى.

ومنها: أن يوقر المشايخ، ويرحم الصغار، وأن يكون مع الخلق كافة طلق الوجه رقيقاً، وأن يفى بالعهد، وينصف الناس من نفسه، ولا يأتى إليهم إلا ما يحب أن يؤتى به"[1].

ومن الأحاديث النبوية التى ترشد إلى هذه الحقوق: ما روى عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: بعيادة

---

(١) راجـع توجـيهات للدعاة والمصلحين فى ضوء هدى إمام المرسلين صلى الله عليه وسلم د/ أحمد عبد المبدى أحمد – ص ١٩٦ – ط الأولى – مطبعة الحسين الإسلامية.

المـــريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار القسم .."[1].

وما روى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "والـــذى نفســـى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حـــتى تحـــابوا، أولا أدلكـــم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشو السلام بينكم"[2].

٢- العلاقـــة بنســـاء المسلمين : لا شك أن النساء فى أى مجتمع يمثلن الجانـــب الآخـــر مـــنه، وفى المجتمع الإسلامي هن مكلفات بكثير من التكالـــيف الـــتى كُلـــف بها الرجال ، كما أنهن يقمن ببعض الواجبات الاجتماعية التى يستطيعها الرجال.

ولقـــد كرم الإسلام المرأة فى كل مراحل حياتها، فقد كرمها بنتاً وأختاً وزوجة وأماً، وحفظ لها إنسانيتها، وحافظ عليها من كل ما يخدش حـــياءها أو يسئ إلى عفتها وكرامتها. ودعا إلى حسن معاملتها، ومما يـــدل على ذلك – إلى جانب بعض الآيات القرآنية التى ورد ذكرها فى

(١) صـــحيح البخاري بحاشية الندى – كتاب الاستئذان – باب إفشاء السلام – ج٤ – ص ٨٧.

(٢) سنن ابن ماجة – ٣٣ كتاب الأدب – باب إفشاء السلام – الحديث رقم ٣٦٩٢ – ص ١٢١٧ – مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

الـنقطة الأولـى من المطلب الأول – بعض الأحاديث التى وردت عن الرسـول ﷺ ومنها: ما روى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "خياركم خياركم لنسائهم"[1].

وروى عن انس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "حُبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجُعل قرة عينى فى الصلاة"[2].

وروى عـن أم العلاء رضى الله عنها قالت: عادنى رسول الله ﷺ وأنـا مريضة، فقال: "أبشرى يا أم العلاء فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الذهب والفضة"[3].

فهـل يوجد ما يشير إلى السماحة فى معاملة النساء أكثر وأبلغ من تعبيرات الخيرية والحب وعيادة النبى ﷺ لمرضى النساء ؟؟

٣- العلاقة بأطفال المسلمين : الطفولة مرحلة هامة وشريحة مهمة من شـرائح المجـتمع، فلـو نالت هذه المرحلة حقها من التربية السليمة"، والـتعاهد المسـتمر بالتوجيه والتهذيب، لأعطت المجتمع جيلاً صالحاً يسـاهم فـى إصـلاح المجـتمع وتنميـته والارتقاء بشئونه فى جميع المستويات.

---

(١) المـرجع السـابق – ٩ كـتاب النكاح- ٥٠ باب حسن معاشرة النساء – حديث رقم ١٩٧٨ – جـ١ – ص ٦٣٦ .

(٢) سـنن النسائى بشرح الحافظ السيوطى وحاشية السندى – كتاب عشرة النساء – باب حب النساء – ج٧ – ص ٦١ – دار الحديث.

(٣) سـنن أبـى داود – كتاب الخراج والإمارة والفئ – باب عيادة النساء – حديث رقم ٣٠٩٣ – ج ٣ – ص ١٨٠ – دار الحديث.

ولأهمية هذه المرحلة اهتم الإسلام بالأطفال وأرشد إلى الأسلوب الذى يتناسب معهم، وهو الأسلوب الذى يحتوى على اللطف والتسامح، يفهـــم ذلك من قول الله تعالى على لسان لقمان الحكيم، وهو يوجه ابنه التوجيه السليم إذ يناديه بلطف وحنان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وقد وردت أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ تدل دلالة واضحة على هذا الأسلوب الرحيم منها:

"عـــن أنـــس رضـــى الله عـــنه أنه كان يمشى مع رسول الله ﷺ فمر بصبيان فسلم عليهم"[١].

وروى ابن ماجة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: "أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم"[٢].

وجـــاء فـــى صحيح الإمام مسلم – رحمه الله عن أبى قتادة الأنصارى رضـــى الله عـــنه قـــال: رأيت النبى ﷺ يؤم الناس وأُمامة بنت أبى العاص، وهى ابنة زينب بنت النبى ﷺ على عاتقة فإذا ركع وضعها، وإذا رفع من السجود أعادها"[٣].

هـــذه توجـــيهات نـــبوية: **قولية وعملية مليئة بالسماحة واللطف والعطف فى العلاقة مع الأطفال بين منظومة توجيهات المنهج الإسلامى الـــذى ارتضاه الحكيم العليم اللطيف الخبير الذى أنزله الله على رسوله ﷺ ولم يجعل فيه عوجاً.**

---

(١) صـــحيح مسلم بشرح النووى – كتاب السلام– باب استحباب السلام على الصبيان – ج٤ – ص ١٤٩ .

(٢) الترغيب والترهيب للمنذرى – ج٣ – ص ٨٦ – ٨٧ .

(٣) صحيح الإمام مسلم بشرح النووى – كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز حمل الصبيان فى الصلاة – ج٥ – ص ٣١.

المطلب الثالث

سماحة الإسلام فى العلاقة مع غير المسلمين

الإســـلام هو دين الرحمة الذى ختم به الرحمن الرحيم رسالاته إلى البشر، ورسول الإسلام الذى جعله الله تعالى خاتماً لرسله وأنبيائه، هو رحمة الله للعالمين، فهو ﷺ رحمة بطبعه وسلوكه ومعاملته، وهو رحمة بدعوته وبكل ما اشتملت عليه، ولا أدل على هذه الحقيقة من قول الله تــبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقوله سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّــوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْــتَ فَــتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقولـــه تعالى فى شأن الدعوة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الــنحل:١٢٥]، وقولـــه تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الْغَيِّ..﴾ [البقرة:٢٥٦].

وســـماحة الإســـلام فـــى العلاقة مع غير المسلمين ، تتمثل مع شـــريحتين مـــن شـــرائح المجـــتمع، وهمـــا: أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، وغيرهم من الكافرين:

١- علاقة المسلمين مع اليهود والنصارى: يحرص الإسلام على أن يســـود السلام العالمى بين المسلمين وبين الشعوب كلها ، ويحرص بشـــكل أشد على السلام بين المسلمين وبين من يؤمنون برسالة الله ولا ينكرون الوحى، وإن اختلفت صور إيمانهم عن إيمان المسلمين.

يحدد القرآن الكريم هذه النظرة فيما يختص باليهود فى قول الله تـبارك وتعـالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِيـنَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّـه وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، وفـيما يختص بالنصارى يقول عز وجل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَـدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْـلُ الإِنجِـيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٦-٤٧].

ولقـد ضـرب الرسـول ﷺ وصحابته رضى الله عنهم أروع الأمثلة للسماحة فى علاقة المسلمين باليهود والنصارى ومن هذه الأمثلة :

ما روى عن أنس رضى الله عنه أن غلاماً من اليهود كان مرض، فأتاه النبى ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: أسلم فنظر إلى أبيه وهو عند رأسـه فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فأسلم، فقام النبى ﷺ وهو يقول: "الحمد لله الذى أنقذه بى من النار"[١].

كـان النبـي ﷺ يحضـر ولائم أهل الكتاب ويغشى مجالسهم، ويواسيهم فى مصابهم، ويعود مرضاهم، ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التى يتبادلها المجتمعون فى جماعة، يحكمها قانون واحد، وتشغل مكاناً مشتركاً ، فقد كان ﷺ يقترض منهم نقوداً ويرهنهم متاعاً، ولم يكن ذلك

(١) سنن أبى داود – كتاب الخراج والأمارة والفئ – باب فى عيادة الذمى – حديث رقم ٣٠٩٥ – ج٣ – ص ١٨١ .

عجـزاً من أصحابه رضوان الله عليهم عن إقراضه، فإن بعضهم كان ثـرياً ، وكلهم يتلهف على أن يقرض رسول الله ﷺ بل كان يفعل ذلك تعلـيماً للأمة، وتثبيتاً عملياً لما يدعو إليه من سلام ووئام، وتدليلاً على أن الإسلام لا يقطع علاقة المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم[1].

وقـد فهـم الصحابة رضى الله عنهم هذا المنهج المتسامح مع اليهود والنصارى، فساوروا على هذا النهج الحكيم.

ففي خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصراً يتحصنون فيه، وعلـى أن لا يمنعوا من ضرب نواقيسهم، أو إخراج الصلبان فى يوم عيدهم، على أن لا يعينوا كافراً على مسلم، ولا يتجسسوا لحساب الكفار علـى المسـلمين، ونص فى المعاهدة على أن الجزية يعفى منها الشيخ الـذى عجز عن العمل، أو أصابته آفة، أو كان غنياً فافتقر، وليس ذلك فحسـب ، بـل يعـال هو وأولاده من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الإسلام[2].

ثم جاءت سيرة المسلمين الأولين الذين تفرقوا فى أنحاء الأرض علـى خـير ما تكون السماحة، فعاشروا أبناء الأمم من الروم والفرس والترك والديلم والبربر، دون أن يتحرجوا بنمط من أنماط المعيشة، ولا بأسلوب من أساليب العرف ما لم يكن فيه مساس بالعقيدة والعبادة[3].

---

(١) راجـع سـماحة الإسـلام، د/ أحمد محمد الحوفى – ص ٦٦ – ط الثانية – مطبعة نهضة مصر.

(٢) توجيهات للدعاة والمصلحين، د/ أحمد عبد المبدى أحمد – ص ٢١٤ .

(٣) التفكير فريضة إسلامية – الأستاذ العقاد – ص ١٤٦ – م دار نهضة مصر.

وهـذا المسـلك المتسامح ليس بمستغرب عن الإسلام، فهو دين الـرحمة، ونبيه رسول الرحمة، وكل من يتبع منهجه تقوده الرحمة إلى صراط الله المستقيم فى كل المجالات وسائر المعاملات.

٢- علاقة المسلمين مع المشركين : الإسلام دين الرحمة الشاملة للعالمين، فلا فرق فى رحمته بين خلق الله، فهو يدعو أتباعه أن يعاملوا كـل من لا يعتدى عليهم ولا على دينهم بالبر والقسط، يتضح ذلك من قـول الله تعـالى: ﴿لا يَـنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

فعلاقـة المسـلمين مـع الكافرين تتسم فى جوهرها بالسماحة والسلام طالما لم يحدث منهم اعتداء على العقيدة أو الأوطان.

والصـلح مـع العدو أصل عام مقرر فى الإسلام، وأما الحرب فهى أمر طارئ على أصل العلاقات السلمية مع غير المسلمين، والقرآن الكـريم يقـرر هذا الأصل بقولـه تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِيـنَ عَـاهَدْتُمْ مِـنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١]، وقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْـنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال:٦١]، والأمر فـى ذلـك للوجـوب إذ لا صارف له عن حقيقة مقتضاه، وهو قبول المسالمة، والمسالمة هى طلب السلامة من الحروب وآلامها، ولذلك قال بعـض الفقهاء: إن المقصود من الجهاد هو جهاد الوسائل لا الغايات ،

بمعنى أن المقصود نشر الدعوة وتبليغها سلمياً، فإذا تحقق هذا الغرض كان مقدماً على الجهاد بالقتال[1].

ومما يدل على العلاقة المتسامحة مع المشركين صلح الحديبية، يقول الأستاذ وحيد الدين خان: "فصلح الحديبية عام ٦٢٦م هو من أهم أحداث الكفاح الاجتماعي الإسلامي، وتقول سورة الفتح عن هذا الصلح: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢٠]، وهذه الآية التى تتعلق بصلح الحديبية توضح أنه كما يوجد صراط مستقيم للعبادات وللأخلاق فهناك – أيضاً – صراط مستقيم لأمور الصلح والأمن والقتال"[2].

فسماحة الإسلام مع كل فئات المجتمع – بدرجة من الوضوح – لا يستطيع أحد إنكارها إلا إذا كان مغرضاً أو صاحب هوى تقول الدكتور زيغريد هونكة فى كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب)، ولعل أهم انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم ، حتى إن الملك الفارسى (كيروس) قال : إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون

---

(١) محمد رسول الإسلام والسلام – د/ نصر فريد واصل – ص٨٦ – سلسلة دراسات فى الإسلام – العدد ١٨٠ – يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مطابع الأهرام التجارية.

(٢) واقعنا ومستقبلنا فى ضوء الإسلام – وحيد الدين خان – ترجمة د/ سمير عبد الحميد إبراهيم – ص ٨٦ .

مخربيـــن، فما يدعيه من اتهامهم بالتعصب، ما هو أسطورة من نسيج الخيال، تكذبها آلاف الأدلة[1].

فســـماحة الإســـلام حقيقة منهجية وظاهرة تاريخية تظهرها كل مـــراحل التاريخ المتعاقبة ، فسماحته قوية شامخة لا يستطيع النيل منها أى مغرض أو صاحب هوى.

---

(١) راجـــع الســـماحة فى الإسلام والمسيحية – إبراهيم أحمد الوقفى – ص ٦٥ – م دار الفكر العربى.

أهـــم المراجـــع

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : كتب التفسير :

١- تفسـير القرآن الكريم للإمام الحافظ ابن كثير – مكتبة التراث الإسلامى.

٢- التفسـير الكبير للإمام فخر الدين الرازى – دار إحياء التراث العربى.

٣- التفيسـر الوسـيط للقرآن الكريم – د/ محمد سيد طنطاوى – مطبعة السعادة.

ثالثاً : كتب الحديث :

٤- الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى – مكتبة الدعوة الإسلامية.

٥- سنن أبى داود – دار الحديث.

٦- سنن ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – دار إحياء الكتب العربية.

٧- سنن النسائى – دار الحديث.

رابعاً : معاجم اللغة ودوائر المعارف.

٨- دائـرة معـارف القـرن العشرين – محمد فريد وجدى – دار المعرفة – بيروت.

٩- لسان العرب لابن منظور – دار صادر – بيروت.

١٠- المصباح المنير للرافعى – تحقيق د/ عبد العظيم الشناوى – دار المعارف.

١١- المعجـــم الوجيز مجمع اللغة العربية – مطابع وزارة التربية والتعليم

خامساً : الكتب الأخرى :

١٢- إحياء علوم الدين الإمام الغزالى – المكتبة التجارية الكبرى.

١٣- التفكير فريضة إسلامية – العقاد – دار نهضة مصر.

١٤- تهذيـــب الأخلاق وتطهير الأعراق – ابن مسكويه – المطبعة المصرية.

١٥- توجـــيهات للدعاة والمصلحين – د/ أحمد عبد المبدى أحمد – مطبعة الحسين الإسلامية.

١٦- حـــياة الصــــحابة – محمد يوسف الكاندهولى – مكتبة الدعوة الإسلامية.

١٧- ســـماحة الإســـلام – د/ أحمد محمد الحوفى – مطبعة نهضة مصر.

١٨- السماحة فى الإسلام والمسيحية – إبراهيم أحمد الوقفى – دار الفكر العربى.

١٩- محمد رسول الإسلام والسلم – د/ نصر فريد واصل – مطابع الأهرام التجارية.

٢٠- معلمة الإسلام – أنور الجندى – دار الصحوة.

٢١- مـــنهج الإسلام فى العقيدة والعبادة والأخلاق – د/ أحمد عمر هاشم – دار المنار للنشر والتوزيع.

٢٢- واقعنا ومستقبلنا فى ضوء الإسلام – وحيد الدين خان – دار الصحوة.

الدولة العثمانية وتسامحها

مع غير المسلمين

د. هدى درويش (*)

مقدمة :

نزلــت الرســالات السماوية كمنظومة سماوية واحدة منذ نشأة الخلــق حتى نهاية الكون، وتمت برسالة الإسلام لتقر بما جاء قبلها من رسالات وأنبياء ورسل، وتؤمن بكل ما أُنزل من قبل الله تعالى منذ خلق آدم عليه السلام حتى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين.

ومــن هــذا المــنطلق الإيمانى أوجب الله تعالى على المسلمين الإيمــان والتســليم بالرسالات السماوية التى أنزلت على جميع الأنبياء الذين كرمهم الله، وبهذا تحققت رحابة الإسلام وسماحة الإسلام وتوقير الإســلام لجمــيع الأنبــياء وأممهم وأقوامهم الذين أطاعوهم واتبعوهم وانقــادوا لهم وحذوا حذوهم، وساروا على نهج شريعتهم دون تبديل أو تحريف.

من هنا جاء احترام المسلمين لأهل الكتاب ومعاملتهم المعاملة الكريمة طاعة وتكريماً وتوقيراً للإسلام وقرآنه وسنته الشريفة.

والقرآن الكريم يذخر بالآيات الشريفة التى تبرز وجوب معاملة المســلمين لغــير أبناء دينهم، حتى وقت المجادلة التى يمكن أن تخرج

(*) مدرس الأديان المقارنة- معهد الدراسات والبحوث الأسيوية- جامعة الزقازيق

بالإنســـان إلى بعض الحدة فى القول، فنجد الله سبحانه وتعالى يوصى المسلمين باختيار الألفاظ الحسنة وانتقاء أحسن الكلمات، ويتمثل ذلك فى قوـــله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

وبهذا يظهر شمولية الخطاب الذى يشمل الناس كافة سواء كان على الإسلام أم غيره، وتلك هى فطرة الإسلام وحضارته مع الآخر.

وكان سبب اختيارنا الدولة العثمانية نموذجاً لسماحة الإسلام أن الدولـــة العثمانـــية مثلـــت دولـــة الخلافة بعد الدولة العباسية، وعاشت وتنوعت على أرضها مختلف الطوائف والملل غير الإسلامية مدة ستة قرون، تمتعت فيها تلك الطوائف بالمعاملة الكريمة وفقاً للمبدأ الإسلامي ﴿لا إكراه فى الدين﴾.

فعـــاش النصارى واليهود والأرمن وكافة الملل والطوائف إلى جانب المسلمين مستظلين بالحماية والرعاية فى أداء عبادتهم، ومتمتعين بكافة الحقوق المدنية والأمنية حتى إنهم شهدوا بحسن ضيافتها لهم وفتح أبوابهـــا لهـــم علـــى مصراعيها ومعاملتهم المعاملة الإسلامية السمحة الكريمة معهم.

أولاً : الدولة العثمانية كوارثة للخلافة الإسلامية :

مثلت الدولة العثمانية بالنسبة للغرب الرمز المجسد للإسلام، كما مثلـــت فـــى الوقـــت نفسه مصدر الرعب فى العالم، فكانت أكبر دولة إســـلامية قامـــت فى التاريخ من حيث المساحة التى امتدت فى قارات العالم الثلاث: آسيا وأفريقيا وأوروبا، أو الزمان الذى امتد بها إلى ستة

قرون بدءاً من القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن العشرين، حيث امــتدت فــتوحاتها فى الأناضول والبلقان ووصلت إلى فارس وما بين النهرين والشام ومصر والحجاز واليمن والعراق، وبسطت نفوذها على طــرابلس وتونــس والجزائر، ثم زحفت نحو أوروبا حتى وصلت إلى مشــارف فييــنا عاصمة النمسا، كما امتد نفوذها إلى بلغاريا ورومانيا والــيونان ويوغسلافيا وألبانيا والمجر وشبه جزيرة القرم وبعض جزر بولــندا، ونتــيجة لهذا التوسع أصبحت الدولة تحكم شعوباً من مختلف الجنسيات واللغات والديانات.

وكانت الجنسيات تتشكل من الأتراك العثمانيين والأكراد والعرب والــتركمان والشراكسة والبربر والسريان والأرمن والألبان واليونانيين وغيرهم، أما اللغات فاختلفت بين السريانية واللاتينية والعبرية والعربية والتركية والكردية واليونانية والمجرية.

عــاش علــى الأراضــى العثمانية المسلمون السنيون، وبعض طوائــف مــن الشــيعة إلى جانب الطوائف المسيحية من الأرثوذكس والكاثوليك والسريان والأرمن والأقباط والبروتستانت واليهود [1].

ومــنذ نشــأة الدولة اعتنق أمراؤها وسلاطينها الإسلام منذ عهد مؤسســها الأمير عثمان، الذى أحب الإسلام حباً شديداً، وأخضع حكمه لمشورة فقهاء المسلمين وعلمائهم، وتميز عهده بالعدل والاستقامة بحيث توازنــت العاطفة الدينية الجياشة نحو الإسلام مع الروح العسكرية التى

---

[1] عــبد العزيــز الشــناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٩٢م. ص ٩٠-٩٣ (بتصرف)

أخـــذت شكل الجهاد من أجل الإسلام، فلازمت تلك الحالة الدولة طوال تاريخها الذى نتج عنه انتشار الإسلام فى مختلف بقاع العالم.

وكانت الهيئة الإسلامية فى الدولة تتكون من المفتى ويطلق عليه شيخ الإسلام، وكان له نفوذ فى الدولة، وكان السلاطين يحرصون على تدعـــيم ســـلطته ويستشيرونه في أمورهم، ويخضعون لرأيه حتى وقت الحروب التى كانوا يخضونها، فكان المفتى هو الذى يجيز لهم الخوض فى الحرب سواء كانت هجوماً أم دفاعاً.

ومـــن ســـمات الطابع الإسلامي الذى اتسمت به الدولة عنايتها الفائقة بتشييد المساجد، فكان السلاطين ينفقون عليها أموالاً طائلة بهدف كسب قلوب الشعب عن طريق الدين [١].

ومـــن المظاهـــر العامـــة الأساسية للإسلام فى الدولة تطبيقها للشريعة الإسلامية والتمسك بالتقاليد الإسلامية مثل احترام شهر رمضان احتراماً شديداً [٢].

وكانـــت قوانيـــن الدولة التى وضعت فى عهد السلطان سليمان والـــتى عرفت بقانون نامه تتفق مع الشريعة الإسلامية، وتحرص على اتباع أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومن جانب آخر كانت الدولة تتولى تنظيم شئون الحج والاهتمام بـــه اهـــتماماً شديداً باعتباره ركناً من أركان الإسلام، كما اتخذ التيار الصوفي السنى وعلماء المتصوفة فى الدولة دوراً مميزاً فى حياة عامة

---

(١) محمد جميل بيهم: العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب، المطبعة الوطنية، بيروت ، ١٩٥٧، ص ١٢٥.

(٢) عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ، ص ٥٦ – ٥٧ .

الشعب وكانت الدولة تمدهم بالأموال والسلاطين، ويولونهم عناية خاصة بهم فى مجالسهم ويخضعون لمشورة المشايخ المتصوفة فى إدارة شئون الدولة.

وكانـــت مـــن التقالـــيد الرسمية للسلاطين عند تنصيبهم الحكم وتوليـــتهم العـــرش أن يذهب السلطان فى موكب حافل إلى مسجد أبى أيوب الأنصاري فى إستانبول ويتسلم هناك من يد شيخ الطريقة المولوية سيف السلطان عثمان الأول، ثم يتولى مهام منصبه كسلطان للدولة [١].

ويصوّر الجبرتى عظمة إسلام الدولة العثمانية التى عاشت ستة قرون تحت ظل الإسلام: "إن اهتمام السلاطين العثمانيين بإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين، وخدمة الحرمين الشـــريفين والتمســـك فى الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع، أدى إلى تحصين دولتهم ، وطول مدتهم، وهيبة الملوك لهم، كما انقاد لهم المالك والمملوك" [٢].

ومـــنذ ظهـــور الدولـــة شهد العالم عهداً جديداً أطلق عليه عهد الهيمـــنة الإسلامية، مع احتفاظ الديانات الأخرى بأحقيتها الدينية فعاشوا مـــع المســـلمين جنباً إلى جنب فى ظل التسامح الديني الذى شمل جميع أرجاء الدولة.

هـــذا وقد اتسمت الدولة العثمانية بمبدأ التعايش السلمي، وتمتع رعاياهـــا غير المسلمين بالحرية الدينية وممارسة شعائرهم فى الكنائس والمعـــابد الـــتى كانـــت منتشرة فى كل مكان، وتحملت الدولة مسئولية حمايتهم وحماية ممتلكاتهم.

---

(١) هدى درويش: الإسلاميون وتركيا العلمانية ، دار الآفاق العربية ، ١٩٩٨م، ص٢٥

(٢) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٢٩٧هـ (٢١/١).

وكانت الدولة تنظر إلى هؤلاء الرعايا على أساس المساواة فى الحقوق والواجبات بغض النظر عن دياناتهم، فساوت بين المسيحية واليهودية إلى جانب الإسلام، وهو الأمر الذى افتقدته أكثر شعوب العالم فى ذلك الوقت، وبهذا حققت الدولة العثمانية ما لم تحققه أية دولة أوروبية وذلك بسبب التزامها بتطبيق الشريعة الإسلامية فى معاملة رعاياها.

وكان رعايا الدولة غير المسلمين يخضعون لنظام الملل، الذى يقوم على تصنيف رعايا الدولة على أساس المذهب الديني لهؤلاء الرعايا، وكان لكل ملة رئيس تابع لكل ملة ينظر فى المسائل الدينية، ويفصل فى قضايا الأحوال الشخصية دون أى تدخل من الدولة، وقد كفل هذا النظام للرعايا حق الاستقلال الذاتى[١]. كما كان لكل ملة حقها فى إصلاح وترميم الكنائس وبناء المدارس وامتلاك الأراضى والعقارات.

وكان من أهم هذه الملل الروم الأرثوذكس أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية، وكان مقرها إستانبول ورئيسها كان يسمى "البطريرك" ويطلق عليه بطريرك "الفنار" نسبة إلى حى الفنار الذى كانت تقيم فيه هذه الملة، وأتباعه أطلق عليهم "الفناريون"، وكان لهذه البطريركية صلاحيات واسعة دون أى تدخل من الحكومة.

وتأتي فى المرتبة الثانية ملة الروم الكاثوليك ثم ملة الأرمن ثم ملة اليهود.

---

[١] عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق، (٦٨/١).

وكـــان للدولـــة العثمانـــية أسبقيتها على كافة الدول الأوروبية المعاصـــرة لهـــا باســـتقرار رعاياها على كافة المستويات سواء كانت يهوديـــة أم مســـيحية أم مذاهب أخرى حيث عاشوا إلى جانب مسلمى الدولـــة تحـــت ظـــل المساواة والعدالة الاجتماعية نتيجة لالتزام الدولة بأحكام القرآن الكريم وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.

ثانياً : معاملة الدولة العثمانية للكنيسة :

عـــاش الملاييـــن من المسيحيين من جميع المذاهب تحت مظلة الدولة العثمانية التى لم تحاول فى يوم من الأيام حملهم أو إجبارهم على دخول الإسلام تطبيقاً للمبدأ التشريعي "لا إكراه فى الدين" .

وترجع صلة العثمانيين بالكنيسة إلى عهد السلطان محمد الفاتح عـــند فتحه للقسطنطينية، حيث أمر جنوده أن يتبعوا الشريعة الإسلامية فـــى فتحهم المدينة، وأن يتجنبوا المساس بالكنائس والمعابد بأذى، وألا يمسوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون [1].

وعقـــب فتح القسطنطينية أمر السلطان الفاتح بانتخاب بطريرك جديـــد، فانتخـــب رؤســـاء الكنيســـة والرهـــبان بالإجماع "جورجيوس ســـكولاريوس" بطريركاً ولقب بـــ "جناديوس" وقد منحه السلطان إدارة شئون النصارى روحياً ومذهبياً، كما منحه لقباً عالياً وهو "أس الملة".

---

(١) على حسون : الدولة العثمانية ، المكتب الإسلامي، بيروت ، ١٩٨٣م، ص٣٩ .

وبهـذه الصلاحيات أصبح "جناديوس" رئيساً لطائفة الأرثوذكس داخل الكنيسة وخارجها بتأييد من الدولة التى منحته سلطات الوزير فى الحكومـة العثمانـية، فكانـت سلطته مطلقة، وكان له حق التحدث فى الديوان مدافعاً عن مصالح ملته (١).

وكـان لهذا البطريرك بلاط خاص به لا يستطيع أحد مقابلته إلا عن طريق هذا البلاط وحصوله على إذن خاص، وكان البطريرك يحمل على صدره صورة الصقر وهو الشعار البيزنطي (٢).

وكـان البطريرك هو المسئول أمام الدولة عن طائفته من خلال القسـم الذى كان يقسمه عند اختياره لهذا المنصب، ويعرف هذا القسم باسـم "يميـن نامـه" ويتلوه أمام السلطان فى حضور خمسة أشخاص، ويتضـمن هـذا القسـم "أن يظل مخلصاً للسلطان، وينفذ قوانين الدولة العثمانية ويحترمها، ولا يخونها، وأن يؤدى عمله على أتم وجه، ويكتب للدولة عن كل من تبدر منه خيانة للبلاد".

والواقـع أن بعـض هـؤلاء تناسى هذه المسئولية مستنداً على الحرية التام التى كفلتها الدولة لهم وسماحة الدولة لإدارة مصالحهم دون تدخـل ممـا أدى بنصارى الروم التابعين للدولة العثمانية أوروبا إلى العمـل على الاستقلال عن الدولة والانفصال عنه مما تسبب فى تجزئة الدولة ومن ثم انهيارها (٣).

---

(١) ثـريا شـاهين: دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية ، ترجمة محمد حرب ، جدة، ١٩٩٧م، ص٢٦ .

(٢) المرجع السابق، ص٣٥ .

(٣) ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص ٢٧ – ٢٩ .

وقد تنوعت طوائفهم بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس واليســوعيين واللعازريين والكبوشيين والكرمليين والبربسبيتريين الذيــن وفــدوا من إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية (١).

واســتطاع الســلطان محمد الفاتح أن يضم جميع هذه الطوائف تحــت إدارة كــنائس ارتبطــت بالسلطة المركزية، حيث قام بعد فتحه إســتانبول بمنح مقام البطريركية لجيناديوس الثاني، وبطريركية أخرى فــى أريــوان والقدس وأخرى ثالثة فى إستانبول كما تم ربط الكنائس الحبشية والقبطية والسريانية ببطريركية الأرمن فى إستانبول (٢).

ومن ناحية أخرى منح السلطان سليم الأول بطريركية الروم فى استانبول لقب "أوكونيك" بمعنى عالمية.

وقد أظهرها هذا اللقب على شكل بابوية فكانت نواة لمبدأ تحقيق اليونان الكبرى، وقد استخدمت هذه البطريركية من الدين ستاراً لتكثيف نشــاطها من أجل تحقيق مبدأ اليونان الكبرى فوق أراضى الأناضول، وقامــت بتنظــيم حملات رعاية مكثفة لتوحيد الأثوذكس فى العالم ضد الدولة العثمانية لتحقيق هذا الهدف (٣).

ونتــيجة لهذا انتشرت المدارس الرومية، واستخدمت فيها اللغة اليونانية كلغة رئيسية، وفرضت سيطرتها على معظم بلاد البلقان أوائل

---

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (٩٨/١) .

(٢) أكمــل الدين إحسان : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، م٢ ، إستانبول ، ١٩٩٩م، ص١٦٥ .

(٣) ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص ٣٤ .

القرن ١٩، وانتشر فيها الرهبان والتجار الروم والمعلمون أيضاً، الأمر الــذى جعلهم يسيطرون على مجال التعليم، ويلقنون تلك المناطق فكرة المبدأ اليونانى والتقاليد اليونانية، وأصبحت مواعظ ودروس القسس فى الكــنائس هو كيفية توجيه رعايا الدولة نحو الحرية والاستقلال ، وفى المدارس الرومية كانت تمنع تدريس اللغة العثمانية منعاً باتاً.

وقــد أعطت الدولة العثمانية لرعاياها الروم سلطات لا حد لها، حيــث تركت لهم أمور التجارة والبرية والاستيراد والتصدير فأحكموا الســيطرة علــيها، كما كان أغلبية العاملين فى الأسطول العثماني من الروم.

وفــى عهد التنظيمات الخيرية أصدر السلطان عبد الحميد الأول فــرماناً بشــأن الإصــلاحات التى أدخلها فى الدول، تضمنت احترام الحــريات العامة والممتلكات والأشخاص بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية وأصلهم القومي ومساواة جميع الأديان أمام القانون.

كمــا أصدر السلطان محمود الثانى مرسومين خاصين بمعاملة أهــل الذمــة الذيــن يقيمون فى الدولة من اليهود والنصارى، جاء فى الأول: تبعاً لأصول الشريعة الإسلامية صدر تصريح يقضى بالمساواة فى الحرية الدينية لكل المواطنين فى تركيا الذين يتبعون أصول الديانات الثلاث. وفى الثاني: لكى تستطيع كل جماعة دينية أن تمارس فى حرية كاملة تعاليم دينها دون تدخل، نصرح بأن لكل مواطن أن يعبد الله تبعاً لأوامر دينه، وألا يجبر أى شخص على ترك دينه ومعتقده[١].

---

(١) أحمــد نوري النعيمي: أثر الأقلية اليهودية فى سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، رئاسة جامعة بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية ، ١٩٨٢م ، ص٨١ .

ومن أهم الامتيازات التى كفلتها الدولة لرعاياها غير المسلمين ما يلى:

١- انتخاب بطريرك (رئيس ديني) لكل ملة.

٢- حرية ممارسة عباداتهم.

٣- حقهم فى إصلاح وترميم الكنائس.

٤- الحق فى إنشاء وبناء كنائس جديدة.

٥- الحق فى إلحاق أبنائهم فى مدارس الدولة الحكومية والعسكرية والمدنية.

٦- أحقية إنشاء مدارس خاصة بهم للعلوم والفنون والصناعات.

٧- الحق فى امتلاك العقارات.

٨- اتباع مبدأ المساواة بين الطوائف غير المسلمة مع المسلمين فى أمور الضرائب والقضاء والواجبات المدنية[1].

وتطبيقاً لمبدأ المساواة الذى اتخذته الدولة عن الشريعة الإسلامية فـــى معاملـــة أهل الذمة والرعايا غير المسلمين المقيمين فى أراضيها، فإنهـــا منحـــت البطريكـــية عديداً من المناصب الدينية والمدنية، فاحتل هؤلاء الرعايا وظائف مهمة فى ديوان السلطان، وكان الأروام يقومون بأعمال الترجمة فى الديوان، مما كان له تأثير مباشر على الدولة حيث استخدمها بعضهم فى الإساءة إلى الدولة، فكان منهم من يعمل جاسوساً لحساب الروس ضد الدولة.

---

(١) عبد العزيز الشناوى: مرجع سابق، ص ٩٦ – ٩٨

وعاش هؤلاء عهوداً طويلة تحت السيادة العثمانية فى ظل أحكام الشريعة الإسلامية فى إطار قانون أهل الذمة.

والحـــق أن تـــاريخ هذه الطوائف لم يحظ باهتمام من الباحثين والمؤرخين، ولم تظهر عنهم دراسات وبحوث مونوجرافية.

المدارس التبشيرية ودورها فى الدولة :

كانت المدارس الخاصة بالرعايا غير المسلمين فى الدولة ترتكز علـــى حق الاستقلال القانونى والقضائي فى إطار أحكام الشريعة طوال تاريخ الدولة العثمانية.

وقـــد كانت هذه المدارس تبنى فى مبنى ملحق بالكنيسة، وكان القساوسة يقومون بمهمة تعليم أبنائهم مثلما كان مشايخ الإسلام يقومون بتعليم المسلمين فى المدارس الإسلامية.

وكـــان للبعثات التنصيرية نشاط مكثف فى الدولة مستتراً خلف النشـــاط التعليمي والثقافى عن طريق إنشاء مؤسسات ومدارس ومعاهد وكلـــيات أخـــذت صـــفة المســـيحية خاصـــة فى بلاد الشام، حيث قام البروتســـتانت الأمريكيون بإنشاء مدارس فى بيروت والقدس فى الوقت الذى اشتد فيه الخلاف بين البروتستانت والكاثوليك، ونجح الأمريكيون فى تحويل عدد كبير من الكاثوليك إلى المذهب البروتستانتى عن طريق تلـــك المـــدارس وذلك خلال أعوام ١٨٣٩ – ١٨٧٣م، وتركزت جهود البعثات التنصيرية فى بلاد الشام نظراً لتزايد أعدادهم فى بلاد الشام إلى

جانب معرفتهم باللغات الأجنبية إلى جانب العلاقات الوثيقة بين بلاد الشام وأوربا وتأثرهم بالحضارة الغربية والفكر الغربى.

هذه البعثات أداة فى أيدي الحكومات الأوروبية لبسط نفوذها السياسي والثقافي والديني على الدولة العثمانية، الأمر الذى هدد الدولة بشكل مباشر، وأدى إلى انتزاع العديد من الولايات من أيدى الدولة.

ومن ناحية أخرى استخدمت البعثات النزعة الدينية لإذكاء الروح القومية فى أقطار الشرق العربي متخذين من التنصير ذريعة لإنشاء مراكز قوى داخل ولايات الدولة[1].

وقد أقيمت أول مدرسة فى القرن السادس عشر بامتياز خاص منحه السلطان سليمان القانوني لملك فرنسا فرانسوا الأول، وكانت هذه المنحة بداية لما عرف بمشكلة الأقليات وحقوق الامتيازات الأجنبية التى أحدثت فى الدولة العديد من المشاكل.

وكانت المدارس المسيحية فى بداية الأمر مدارس رهبانية يديرها زعماء روحانيون بهدف التعليم الدينى وتنشئة رجال الدين وبعد النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ومع الثراء الذى ظهر على طائفتي الروم الأرثوذوكس والأرمن بدأت تظهر مظاهر العلمنة فى مفاهيم التعليم، حيث تم تأسيس مؤسسات تعليمية جديدة ليس لها علاقة بمدارس الرهبان، وكانت أول مدرسة تقام على هذا المنهج مدرسة "قورو جشمه روم مكتبى" تابعة لأثرياء الروم الذين يقيمون بحى الفنار

---

(١) انظر عبد العزيز الشناوى : مرجع سابق (١٠٦/١).

فـــى إستانبول وقد أصدر السلطان سليم الثالث فرماناً بافتتاحها، وتقوم بمهمـــة تعليم اللغة والأدب والرياضيات، وكانت بمثابة كلية كبيرة تضم داخلها مستشفى وداراً للعجزة ومدرسة للطب، وتوسعت هذه المؤسسات فى القرنين التاسع عشر، وازدادت زيادة مطردة فأقيمت جامعة بيروت الأمريكـــية عام ١٨٦٧م، ومدرسة طب سان جوزيف الكاثوليكية التى أقامهـــا الفرنســـيون فـــى بـــيروت عام ١٨٨٨م، وكان لتلك المدارس التبشيرية دور كبير فى ظهور حركات سياسية مناهضة للدولة العثمانية واستخدم عدد كبير منها ضد وحدة الأراضي العثمانية(١).

تمليك الأراضي والعقارات للأجانب فى الدولة :

طبقـــت الدولة العثمانية نظاماً خاصاً للأجانب المقيمين بالدولة، فمنحـــتهم حق التصرف وامتلاك الأراضي والعقارات فى جميع أنحاء الدولـــة عـــدا منطقة الحجاز، تلك الامتيازات منحت الأجانب الحق فى الإشراف على مدارسهم الخاصة دون رقابة من الدولة عليها.

الدولة العثمانية والجزية:

كـــان نظام الجزية الذى فرضته الدولة على المسلمين فى البلاد المفـــتوحة يســـقط الجـــزية عن كل من يلتحق بالجيش الإسلامي، ومن يـــرفض الالـــتحاق بالجيش فعليه أن يدفع جزية بديلة عن اشتراكه فى الجيش.

---

(١) أكمل الدين احسان : مرجع سابق ، ص.٥٩٤، ٥٩٥ .

وأوجبت الدولة الجزية على رعاياها من أهل الكتاب مثلما يلتزم المســلمون بدفع الزكاة، حتى يتم تطبيق مبدأ التكافؤ بينهما، وتم أخذها علــى أقســاط بهــدف التيسير على من ليست لديه القدرة على دفعها بأكملها، وتم إعفاء المساكين والطاعنين فى السن والرهبان[1].

وكانت جباية هذه الجزية تتم بالرفق بهم وتوخى العدل وحمايتهم بتوصية الخلفاء المكلفين بجبايتها.

اليهود في ظل الدولة العثمانية:

فى زمن سلاجقة الأناضول كان اليهود يشكلون جاليات صغيرة أخــذت فى الازدياد بعد هجرتهم من فرنسا عام ١٣٩٤م، ومن بافييرا عــام ١٤٧٠م، ثم من أسبانيا عام ١٤٩٢م، وبعد هجرتهم إلى سالونيك وأزمــير وإســتانبول حــدث اطراد فى أعدادهم، وأقيمت لهم حاخامية خاصة تربط جميع الطوائف اليهودية بالسلطة المركزية العثمانية[2].

وقــد فتحــت الدولــة العثمانية أبوابها على مصراعيها لليهود النازحيــن إليها من مختلف البلاد الأوروبية الفارين من محاكم التفتيش التى خيرتهم بين النفى وبين التنصر، فكانت الدولة العثمانية هى طوق الــنجاة الذى عثر عليه اليهود الفارون من المعاناة التى لاقوها فى تلك الشعوب.

---

(١) موفق بنى المرجه، صحوة الرجل الأبيض، مؤسسة صقر الخليج، الكويت ، ١٩٨٤، ص١٧٥ .

(٢) أكمل الدين إحسان: مرجع سابق، ص١٦٦ .

وقد قامت الدولة بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية حيث سمحت لهم بممارسة شؤونهم الدينية، ومنحت الحاخام اليهودي حق تمثيل اليهود أمام الحكومة والنظر فى قضاياهم طبقاً للشريعة اليهودية[1].

وكـــان مـــن مهام الحاخام تحديد ضرائب الطائفة اليهودية التى تعـــيش فـــى الدولة، وكان له الحق فى اختيار الرؤساء المحليين الذين كانـــت لهـــم مكانة رسمية فى الدولة، كما سمحت الدولة لهؤلاء اليهود بالإقامـــة فى الدولة كمستوطنين، وكفلت لهم حرية العمل فى الدولة فى كـــل فـــروع التجارة والصناعة والعلم والطباعة، ووصلوا إلى مراكز مـــرموقة فى الدولة، فكان منهم التجار وكبار رجال الأعمال والأطباء ومنهم أيضاً من تقلد منصب وزير المالية والأشغال والسكان، وأعطتهم الدولة حق إنشاء مدارس خاصة بهم وإدارة شئونهم التعليمية، إلى جانب أحقيتهم فى ممارسة عباداتهم وطقوسهم وإنشاء المعابد لإقامة شعائرهم الدينية فيها، إضافة إلى السماح لهم بالحج إلى الأماكن المقدسة.

وقد عامل السلاطين العثمانيون اليهود المعاملة الكريمة التى أمر بهـــا الإســـلام وفقـــاً للشريعة الإسلامية، ومن السلاطين الذين أحسنوا معاملة أهل الكتاب وخاصة اليهود الأمير أورخان بن عثمان ثانى حكام الدولـــة العثمانـــية ، كما أذن لهم ببناء صومعة كانت ما تزال تمارس نشاطها حتى الأربعينات من القرن العشرين.

---

(١) رفـــيق شاكر: السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، مكتبة مدبولى ، القـــــــاهرة ، ١٩٩٠م، ص٣١.

والأمـــير مراد الأول الذى سمح لليهود بالإقامة فى مدينة أنقرة بعدما حولها إلى عاصمة للدولة بعد بروسة وعاشت فيها أكبر الطوائف اليهودية[(١)].

أمـــا الأمـــير مراد الثاني فقد أعطى لليهود حق امتلاك أراضى بالدولـــة حيـــث لقبه اليهود "بالرجل الإنساني الكبير"، كما سمح بهجرة الـــيهود إلى الدولة بدون قيد أو شرط، وعند فتحه لأدرنه أعطى لرئيس حاخاماتها السيادة على كافة يهود الروملى[(٢)].

أما السلطان محمد الثانى فاتح القسطنطينية فعلى الرغم من فتحه لـــروما الشـــرقية البيزنطـــية وطرابزون، وكان يلقب باسم إمبراطور الأتـــراك وروما الشرقية إلا أنه لم يتخذ موقفاً معادياً تجاه الأديان، فقد رحـــب بالـــيهود وزادت امتـــيازاتهم فى عهده وسمح لهم بالهجرة إلى إســـتنابول وأســـكنهم فى حى خاص بهم، كما أعطى لليهود حق وضع الصور فى معابدهم، وألا يمنعوا من قراءة التوراة بشكل علنى[(٣)].

وفـــى عهده برزت طائفة الأطباء اليهود، وأصبحت لهم شهرة واسعة، وعلى رأسهم الحكيم يعقوب الذى ادعى أنه اهتدى إلى الإسلام وكـــان اســـمه Macstro Lacopo قـــيل إنه هو الذى تسبب فى مقتل

---

(١) أحمد عثمان : تاريخ اليهود، (٣/ ١١)، مكتبة الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م.

(٢) عـــايدة العلى: دولة المثلث بين فكى الكماشة، دار الفكر العربى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٣٢٢ .

(٣) A.R.C. a. g. e. s. ٨٥-٨٦ .

لســلطان الفاتح، حيث وضع له السم بصورة تدريجية فى الدواء مقابل رشوة[1].

هذا وقد اشتهر السلطان محمد الفاتح بمقولته فى حق اليهود التى جاء فيها "ليرتقوا منزلة العرش العالى، ويستوطنوا أفضل أرض، تحت شجر الأعناب العائدة لهم مع الفضة والذهب مع الثروة والأنعام"[2].

أمـا السلطان بايزيد الثانى فكان من أكثر السلاطين تسامحاً مع الـيهود فى الدولة، فقد أسكن الكثير منهم فى سلانيك وهو الذى عرض تقديـم مـلاذ لهم فى الدولة وأرسل ما عرف بـ "سفن الرحمة" لجلب الـيهود وإنقاذهم من محاكم التفتيش الأسبانية، وعبر عنهم بقوله: إننى مـندهش مـن الذين يقولون أن فرديناند ملك أسبانيا ذكى، فهو يضعف دولته ويغنى أرضى"[3].

والسـلطان سـليم الأول أقـر لـزعماء الـيهود الدينيين بكافة الصـلاحيات وربطهم بالعاصمة إستانبول، ولقب كل زعيم منهم بلقب "نجد" أو "ريس" وأعطى كل جماعة يهودية حق حكم نفسها تحت سلطة حاخامها المحلى[4].

---

(١) يلمـاز أوزتونـا، تـاريخ الدولـة العثمانية، (٢/١٧٧) مؤسسة فيصل بالتمويل ، تركيات، استانبول، ١٩٩٠م.

(٢) أحمد نورى النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٣٣ .

(٣) عايدة العلى، دولة المثلث ، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٣٢٢ .

(٤) كلمـة السـعيد حبيب: الأقليات والممارسة السياسية فى الخبرة الإسلامية – دراسة حالـة الدولـة العثمانية – رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ١٩٩٥م (٢/٣٥٠).

ومما يجدر ذكره أن اليهود أنفسهم اعترفوا بفضل معاملة الأتراك وقد كتب الحاخام "إسحق" رسالة إلى اليهود فى العالم يصف فيها وضع اليهود فى الدولة العثمانية جاء فيها: "أعلن إليكم أن تركيا هى الأرض التى لا شئ يفتقد فيها، فالجميع طيبون معكم، والطريق للأرض المقدسة مفتوح لكم عبر تركيا، أليس من الأفضل لكم أن تعيشوا تحت حكم المسلمين أكثر من حكم المسيحيين ، هنا يسمح لكم بأن تلبسوا أروابكم وملابسكم اليهودية[1].

وبمناسبة الذكرى المئوية الرابعة لنزوح اليهود إلى الدولة العثمانية من أسبانيا نشرت صحيفة يهودية عام ١٨٩٢م رسالة جاء فيها "عندما وصل هؤلاء الذين كان كل شئ بالأمس يلعنهم إلى إستانبول بائسين عراة سمعوا لأول مرة صوتاً يقول لهم: أهلاً بكم أهل الكتاب"[2].

هذا وقد جدد اليهود امتنانهم للأتراك بفتح أبوابها لهم أثناء الاحتفال الذي أقاموه فى يوليو ١٩٩٢م بمناسبة مرور ٥٠٠ عام لنزوح اليهود من أسبانيا ولجوئهم إلى الدولة العثمانية حيث حضر الاحتفال حاييم هيرتسوج رئيس الكيان الصهيوني، ففى أثناء لقائه مع أوزال وديميريل عرض شريط فيديو لجورج بوش أشار فيه بوش إلى أن

---

(١) أحمد نوري التعيمى، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٢٢/٣٠

Guleryuz, Naim, The History of the Turkish Jews", p.٣٠

(٢) أحمد نوري التعيمى: اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣٣/٣٧ .

معايشـــة الـــيهود فى تركيا منذ ٥٠٠ عام إنما هو مثال لإمكانية تعايش اليهود مع المسلمين فى سلام وأمان(١).

أما السلطان سليمان القانوني فقد كان متزوجاً من يهودية تدعى روكســيلانة، وكـــان لهـــا نفوذ كبير فى القصر السلطانى، وعند فتح الســـلطان سليمان لجزر رودس أعطى اليهود امتياز حق صناعة معدن كبريـــت إينجرلى فأعطاهم إمكانية الثراء، كما قام بفك أسر اليهود من بودين وبودابست إلى الدولة وأسكنهم سلانيك كما أعاد بناء أسوار مدينة القدس وسمح لليهود باستيطان بعض أجزاء من فلسطين(٢).

وبعـــد استيلائه على المجر جلب معظم الذين كانوا يقيمون فيها إلى بلاده ومنحهم حق الحماية.

وقد وصف اليهود معاملة السلطان سليمان لهم بقولهم: "لقد جاء المسيح المنقذ، وجلب لنا السعادة"، وصرحوا أن الطريق إلى تركيا هو طريق الحياة بالنسبة لهم(٣).

أمـــا السلطان سليم الثانى فقد منح اليهود ألقاباً عالية فى بلاطه، وبرزت فى عهده شخصيات يهودية كان لها نفوذها وتأثيرها الكبير فى الدولـــة مـــن هؤلاء "إبراهيم كاسترو" الذى عينه السلطان وزيراً للمالية و"يوسف ناسى" وكان من كبار العاملين فى الأمور المالية والمصرفية، وكان يمتلك شركات تجارية كبرى، وقد منحه السلطان سليم الثانى لقب دوناكســـون صـــاحب الـــبحر الأبـــيض، وزعيم اليهود وكان من كبار

---

(١) وزارة الخارجية العراقية ن العدد ٤٥٠ فى ١٨/٧/١٩٩٢م.

(٢) Abdurrahman Kucuk, Donmeler Tarihi, Ankara, s. ١٠٢ .

(٣) أحمد نورى النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣٤ .

المشــجعين لهجــرة اليهود لفلسطين، هذا وقد منح السلطان سليم أيضاً اليهود فى عهده حق زيارة الأماكن المقدسة.

أما السلطان عبد الحميد الثانى فكان يتخذ تقليداً فى عيد الفصح، حيث كان يقوم بتوزيع الأموال على فقراء اليهود، كما أنعم على حاخام الطائفــة الإســرائيلية بمصر بأن منحه الوسام الحميدى، وكان يحرص علــى مشــاركة الــيهود فــى الانتخابات البلدية، وقد شهد المستشرق الهــنغارى "أرمينيوس فامبرى" على حسن معاملة السلطان عبد الحميد الــثانى للــيهود ومســاواته لحاخام تركيا الأكبر ، إلا أن السلطان عبد الحمــيد كــان يفــرق بين اليهود رعايا الدولة وبين الحركة الصهيونية وأطماعها فى الاستيلاء على فلسطين حيث تصدى للأطماع الصهيونية فــى فلسطين حفاظاً على الأماكن المقدسة الأمر الذى أدى به إلى فقدان عرشه[1].

وقــد قام السلاطين العثمانيين بتطبيق مبدأ تعدد الزوجات الذى جــاء بــه الإسلام والتزموا بالعدد الذى ورد فى القرآن الكريم وهو ألا يحتفظ الزوج بأكثر من أربع زوجات، وقاموا بتحقيق مبادئ الإسلام فى عدم جواز أن يرغم الزوج المسلم زوجته الكتابية على دخول دينه، كما لا يجــيز الإسلام أن يمنعها من أداء عبادتها وشعائرها الدينية، بل إن بعــض المذاهب الإسلامية الفقهية أوجبت على المسلم أن يصحبها إلى مكان أداء عبادتها سواء كانت كنيسة أم دور عبادة خاصة بها.

---

(١) هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، (١/٣٦٥ وما بعدها)، دار القلم، دمشق، ٢٠٠١م.

وقـد سمح الأمير عثمان مؤسس الدولة إبان نشوء الدولة لابنه أورخان بالزواج من سيدة يونانية مسيحية كان يطلق عليها اسم نيلوفيير بمعـنى زهـرة اللوتـس قد أنجبت له ابناً تولى العرش من بعده وهو السلطان مراد الأول الذى تزوج هو الآخر من ابنة ملك بلغاريا.

أمـا السلطان بايزيد الأول فقد أراد يتخذ من دولة الصرب دولة حليفة له فتزوج من أوليفيرا ابنة ملك الصرب.

كما تزوج السلطان مراد الثانى ابنة أمير الصرب وتدعى مارا، وقـد أثمـر هذا الزواج ثماراً طيبة فى مجال علاقات الدولة بالخارج وكانت سبباً فى توثيق الصلات بين الدولة العثمانية ودولة الصرب.

أمـا السـلطان سليم الثاني فقد تزوج من يهودية أيضاً وتدعى نوربـانو وهـى الـتى أفسـحت المجال لليهود للتغلغل داخل القصر السلطانى(١).

وكـان السلاطين السبعة الأوائل من عثمان حتى السلطان محمد الفـاتح متزوجين من نساء حرائر بعقود زواج شرعية، وبعد السلطان الفـاتح اتجـه السـلاطين إلى جوارى القصر، وكان كل سلطان يرفع الجوارى إلى منزلة عالية بعد عتقها فى حالة إنجابها ولد له فتصبح من مجرد جارية ملك يمين السلطان إلى سيدة يطلق عليها " قادين "، وكانت تظفـر بالامتـيازات الـتى تمـيزت بها السلطانة من حيث الاحترام وتخصـيص جـناح خاص لها وترصد لها اعتمادات مالية ويرتب لها حـرس خاص بها، فحظيت بالمعاملة الكريمة تطبيقاً لأحكام الإسلام فى

(١) A.R. Kucuk, a. g. e. s. ١٠٧ .

معاملـــة الرقيق تحقيقاً لقول الرسول صلوات الله عليه "أيما رجل ولدت منه أمته فهى معتقة عن دبر منه"[١].

هــذا وقد نجم عن تعدد الزوجات فى القصر السلطاني مشكلات انعكســت على الدولة، إذ كانت كل أم لمولود ذكر تسعى إلى أن يكون ابــنها ولــياً، للعهــد فحيكت المؤامرات بينهن، وشاع جو من التنافس والتناحر بين الأخوة غير الأشقاء مما أحدث خللاً فى نظام الدولة[٢].

المدارس اليهودية فى الدولة العثمانية :

انتشـــرت المـــدارس اليهودية فى الدولة العثمانية انتشاراً كبيراً تطبيقاً لمبدأ الحرية المذهبية الذى منحته الدولة فى التعامل مع الطوائف غير المسلمة المقيمة بالدولة، حيث منحتهم حرية إقامة مدارس خاصة، وسمحت لهم بحرية تدريس ما يرونه من مناهج دون تدخل أو رقابة من الدولة.

لذا انتشرت المدارس اليهودية التى كانت تمول عن طريق كبار الشخصيات اليهودية الثرية فى أوروبا أمثال عائلات روتشيلد وهيرش، وكانـــت مدارسهم تنقسم إلى قسمين: مدارس دينية محافظة تقوم بمهمة تعليم الدين اليهودى تعرف باسم "تلمود توراة" ، ومدارس حديثة تكونت بعــد حـــركة التنظيمات فى الدولة وكانت تهتم بالثقافة الأجنبية وتقليد الغرب.

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٣٤٦/١٠) وبنحوه الدارقطنى فى سننه (١٣١/٤) والإمام أحمد فى مسنده (٣١٧/١).

(٢) انظر عبد العزيز الشناوى مرجع سابق، ص٥٥٩ – ٥٩٧ (بتصرف).

وقـد انتشـرت هـذه المدارس انتشاراً كبيراً فى الشام وبغداد بالإضافة إلى أدرنة وسلانيك وإزمير وخاص كوى وغالاطة والروملى وغيرها.

وفـى بدايـة القرن التاسع عشر تأسست مدرسة يهودية حديثة أسسـها إبراهـيم دكماندو عام ١٨٦٤م أحدثت صراعاً بين الحاخاميين المحافظيـن والعلمانييـن، واسـتمر تأسيس المدارس اليهودية على يد الإليانس[1]. حتى وصل عددها فى بروسة وجناق قلعة وإيدن من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مدرسة يهودية للبنين والبنات.

الدولة والمؤسسات الأجنبية :

وكـان للمؤسسـات التعليمـية الأمريكية دور بارز فى الدولة العثمانية منذ عهد التنظيمات، وكان هدف تلك المؤسسات إيقاظ الحركة الانفصـالية للشـعوب التى تقع تحت حكم الدولة مثل الأرمن والبلغار، وكانـت لتلك الامتيازات الذى كفلته الدولة لرعاياها فيما عدا السلطان عـبد الحمـيد الذى قام بمراقبة دور هذه المدارس الأمريكية وأهدافها والـتى تخـرج منها الكثير من رجال الدولة الأتراك والقادة وأصحاب الـنفوذ أمـثال بولند أجاويد رئيس وزراء تركيا السابق وتانسو تشيلر

---

(١) الإليانس : هيئة تكونت من اليهود الفرنسيين بهدف مساعدة اليهود والدفاع عنهم عن طـريق المؤسسـات التعليمـية اليهودية الموجودة فى كل مكان، وانصبت جهودها على تأسيس المدارس بمساعدة ودعم أغنياء اليهود، وضمت إليها لجنة إقليمية لمساعدة ضحايا المجاعـات من اليهود فى أوروبا ومساعدة ضحايا الحرب العلمية الأولى منهم ومساعدة المستوطنين اليهود فى كل مكان ، وكان لها نشاط تعليمى واسـ، وقامت بنشر فكر حركة التنوير الأوروبية فى أوساط يهود الشرق (هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية ، (٢/ ٧٦-٨٢)، مرجع سابق.

رئيسة الوزراء السابقة أيضاً وعدد كبير من مشاهير الكتاب وأصحاب المناصب الكبرى[1].

وانتشـــر فى الدولة أيضاً عدد كبير من المدارس الإيطالية التى كانت تحتوى على بيوت للطلاب وملاجئ للأطفال اليتامى، وأقسام منها لتعلـــيم الخياطة والتطريز وإدارة المنزل، وكان يدرس بها أعداد كبيرة مـــن الذكـــور والإنـــاث، وكـــان الرهبان هم القائمين على تأسيس هذه المدارس وكانت اللغة الفرنسية والألمانية من اللغات الأساسية فيها إلى جانب الإيطالية.

كما انتشر عدد كبير من المدارس فى المدارس الفرنسية، وكانت تحمـــل ســـمات دينـــية خاصة لتعليم الدين لصغار السن، ومن أهم هذه المـــدارس – مدرسة سان جورج الفرنسية، ومدرسة سان بير الفرنسية ومدرســـة نوتـــردام دى سيون ومدرسة سان بوليكار الفرنسية، وكانت تحمل سمات دينية فى شئون تعليمها، كذلك معهد سان جوزيف الخاص الفرنســـى وكان لهذا المعهد أهمية فى المجال التجارى الذى سار على نهـــج المعهـــد العثمانى التابع لوزارة التجارة العثمانية فى ذلك الوقت، وكـــان الطـــلاب المســـلمون يلـــتحقون بهذا المعهد إلى جانب الطلاب الأجانب مما يظهر استبعاد عنصر العصبية المذهبية منه[2].

هـــذا وقـــد كشفت التقارير الخاصة بنظارة المعارف أنه يوجد بالدولـــة ٤٥٤٧ مدرســـة منها ٤١٣ مدرسة أجنبية، أما المدارس غير المرخصة فبلغ عددها ٤٠٤٩ مدرسة.

---

(١) هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية، مرجع سابق، ج٢، ص٨٣-٩٢ .

(٢) أكمل الدين إحسان: مرجع سابق، م٢، (٢/٥٩٥-٥٩٧) .

وكانـــت مـــدارس الطوائـــف الأرثوذكسية تحت حماية الروس ومدارس الفرنسيين والألمان تحت حماية الأرمن والكاثوليك.

أمـــا الإنجلـــيز والأمريكـــيون فكـــانوا تحـــت حمايـــة الأرمن البروتســـتانت، ولم يُسمح بتدريس اللغة التركية فى مدارسهم، وفى عام ١٩١١م كـــان لـــدى الأجانب بالدولة عشر مدارس عالية و٤٦ مدرسة إعداديـــة و١٤٥٠ مدرســـة ابتدائية يدرس فيها ٦١٦٧٨ طالب، وكان للـــروم اليونانييـــن ٣٥٠٠ مدرسة وللأرمن ٢٥٠٠ مدرسة وجميع هذه المدارس لم يتحقق فيها أى نوع من الرقابة[١].

وظـــل هذا الأمر حتى قيام حرب الاستقلال التى تم بعدها ربط كافة المدارس بنظارة المعارف طبقاً لقانون توحيد التدريس الذى صدر فى ٣١ مارس ١٩٢٤م.

أثر تسامح الدولة مع اليهود

أدى تســـامح الدولة المفرط مع الطوائف غير المسلمة وخاصة الـــيهودية أن استغلها اليهود بشكل أضر بالدولة، وجعلهم يشكلون دولة داخـــل دولة محققين دعامتين أساسيتين ارتكزتا على الهيمنة الاقتصادية من خلال تشجيع الدولة للعائلات الثرية اليهودية بتأسيس البنوك الخاصة والحكومية وعلى رأسها عائلات الاتيني ومزراحى وروتشيلد، ومن أهم الشخصـــيات اليهودية التى ظهرت فى الميدان التجارى والتى كان لها تأثـــير كبـــير علـــى الدولة شخصية "يوسف ناسى" الذي شغل منصب مستشـــار السلطان سليمان القانونى ومنّح امتيازاً على مدينة طبرية مع

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٩٧ .

سبع قرى مجاوره استثمره لصالح اليهود فى هجرتهم إلى فلسطين، وتلا السلطان سليمان السلطان سليم الثاني الذي منحه لقب دوق دوناكسون "صاحب البحر الأبيض" كما منحت الدولة أيضاً منصب وزير المالية لجاويد بك الذي قام بعقد الصفقات وإدارة الأموال اللازمة لهجرة اليهود.

والدعامة الثانية التى ارتكز عليها اليهود فى الدولة هى السيطرة على وسائل الإعلام، فقد قام رجال اليهود الأثرياء بتمويل الصحف المناهضة للدولة لخدمة أغراض اليهود إلى جانب إنشاء وتأسيس المدارس اليهودية التى قامت بتلقين الشباب الفكر القومى ودعوتهم لتقليد الغرب بغرض التوجه إلى التحديث، أما الصحف فقد وجهوها إلى الدعوة إلى سفور المرأة حتى تواكب الحضارة الغربية الحديثة، وإلى تأليب الرأى العام التركى ضد الخلفاء والتوجه إلى علمنة الدولة والبعد عن المظاهر الإسلامية وإلى تشجيع الإلحاد، وقد وصلت الدولة فى منح المناصب الوزارية والمراكز الكبرى لهم إلى أن أصبحوا يستخدمون سلطاتهم فى زعزعة الأمن الداخلى للدولة وإشعال الفتن الطائفية وإثارة القلاقل ومثال هذا ما قامت به فئة يهود الدونمة[1].

ومن جانب آخر أفسحت الدولة العثمانية المجال للجمعيات الماسونية التى انتسبت إليها شخصيات تركية ظناً منهم أنها تسعى لخدمة العالم من خلال مبدئها العام (الحرية – المساواة – الإخاء) إلا أنها تكشفت أهدافها الصهيونية بسبب جذورها التوراتية التلمودية والفكر القبالى الذى يستند على أفكار فلسفية وتعاليم روحية تعتبر اليهود

---

(١) موفق بنى المرجة: مرجع سابق، ص١٨٤(بتصرف) .

والماسونيين هما الأبناء الروحيين لبناء هيكل سليمان[1]. وهذه المنظمات الماسونية هى التى ساهمت مساهمة فعالة فى الإطاحة بالسلطان عبد الحميد تحت ستار الحماية الدبلوماسية لها.

من ناحية أخرى كان ليهود الدونمة دور خطير فى القضاء على الدولة العثمانية فقد كان لهم دور كبير فى التحكم فى اقتصاد الدولة وتغلغلوا داخل مؤسسات الدولة فكانت لهم سيطرتهم المباشرة على توجيه الإعلام والتحكم فى الصحف ووسائل الإعلام المختلفة التى كانوا يمتلكونها بما يخدم أغراضهم، ومن ثم قاموا بدور كبير فى التأثير على الفكر التركى المسلم وتوجيهه إلى الأفكار الملحدة والدعوة إلى تقليد الغرب وتشجيع العلمانية والدعوة إلى سفور المرأة واختلاط الشباب بالفتيات بدعوى تحديث الدولة إلى جانب نجاحهم فى القضاء على الخلافة الإسلامية التى كانت ممثلة فى الدولة العثمانية.

وكان من نتائج تسامح الدولة العثمانية وتطبيقها الأحكام الإسلامية أن أصبحت نافذة للتدخل الأجنبى المباشر الذى قام بدوره بإشعال نيران الفتن والخلافات بين الطوائف غير المسلمة بهدف الحصول على النفوذ والمكاسب فى الدولة، إلى جانب تنشيط الحركات الانفصالية القومية فى الأجزاء الأوروبية من الدولة مثل رومانيا وبلغاريا وصربيا وألبانيا واليونان، والعمل على تغيير أوضاع المسيحيين واليهود عن طريق الحصول على جنسيات أوروبية فيصبح

---

(١) جواد رفعت أتلخان: أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين رضا، المختار الإسلامى، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ١٠-١٩ .

لهـــم حق الامتيازات الأجنبية، بالإضافة إلى افتتاح العديد من المدارس والمعـــاهد الأجنبـــية لنشـــر أفكار الغرب فى الدولة، وإذكاء الخلافات وتعميق النعرات العنصرية والمذهبية والطائفية للتدخل فى شئون الدولة الداخلـــية – وتمثلت تلك العنصريات فى الإمارات العلوية والتركمانية والكردية والدروز والعمل على إقامة دولة مارونية، هذا إلى جانب قيام اليهود بتغذية وإثارة المشاكل العنصرية والإقليمية وخاصة تبنيها لمشكلة الأقلـــيات، وقـــد تجلى هذا الموقف فى تصريح ناحوم جولدمان رئيس الـــرابطة الـــيهودية العالمية فى خطابه الذى ألقاه فى باريس فى مؤتمر اليهود المثقفين عام ١٩٦٨ الذى جاء فيه:

"إذا أردنـــا لإسرائيل البقاء والاستقرار فى الشرق الأوسط فعلينا أن نفســـخ الشـــعوب المحيطة بها إلى أقليات متنافرة تلعب إسرائيل من خلالهـــا دوراً طليعياً وذلك بتشجيع قيام دولة علوية فى سوريا، ودولة مارونية فى لبنان، ودولة كردية فى شمال العراق[١].

من ناحية أخرى كان للدور النسائى الأجنبى أثر كبير فى انهيار الدولـــة والتدخل فى الشئون الداخلية أمثال روكسلانة اليهودية الروسية زوجـــة السلطان سليمان القانونى التى حققت نجاحاً فى تقارب السطان ســـليمان لملـــك فرنســـا فرانسو الأول الذى منحه السلطان لقب "حامى النصارى العثمانيين" وعن طريقه تحقق نظام الامتيازات الأجنبية وهى

(١) انظر جريدة الأنباء الكويتية، مارس ، ١٩٨٤م.

التى دبرت مقتل الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) إبراهيم باشا. واستعطفت السلطان سليمان لقبول إيواء يهود الأندلس. والسماح لهم بالاستقرار فى الدولة.

أما اليهود فكان انهيار الخلافة الإسلامية التى كانت تتمثل فى الدولة العثمانية على يد طائفة "يهود الدونمة" الذين تخفوا وراء الإسلام واتخذوا هويتين متناقضتين: اليهودية المتأصلة والإسلامية المزيفة؛ فجسدوا دور المنافقين المراءين وهم الذين بذروا بداية الفكر الصهيونى فى العالم.

إلى جانب امتلاكهم الأجهزة الإعلامية التى عملت على تأليب الرأى العام ضد الدولة لخدمة أغراضها ومواجهة كل من يعترض عليهم.

وظهور فكرة القومية وانحياز العرب القوميين إلى إنجلترا وفرنسا ضد الدولة. والعمل على محو الإسلام وتشجيع الكتب والصحف الملحدة والدعوة إلى التغريب.

وإضافة إلى هذا كله كان الغزو الروسي وأثره على السياسة العثمانية باعتبار روسيا حامية للمسيحيين فى الدولة حيث استطاعت اقتطاع تركستان ١٨٨٤م والسيطرة على القوقاز[1].

---

(١) ضابط تركى: الرجل الصنم.. كمال أتاتورك، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، بيروت ١٩٧٨م، ص٣٨٦، ٤٩٤ .

ومع هذا فلم يسجل تاريخ الدولة العثمانية على اختلاف عهودها حادثـــة اضـــطهاد ديـــنى واحدة بل طبقت منهج الشريعة الإسلامية فى الـــتعامل مع أهل الذمة فحفظت أعراضهم وأموالهم وأملاكهم وأديانهم وأماكن عبادتهم ومقدساتهم.

خاتمة

يتضح من استعراض هذه الأوراق أن الدولة العثمانية وريثة دولة الخلافة العثمانية، قد طبعت مبادىء الإسلام المتمثلة في التسامح مع غير المسلمين ومنحهم كافة الحقوق والامتيازات التي يقرها لهم وفقا لقاعدة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)، لذلك لم يّظطهد أحد ولم يِّحرم من أي حق من حقوقه ولكن الدولة أسرفت غي منح الحقوق، حتى أصبح نظام (الامتيازات الأجنبية) أحد الأنظمة التي أسهمت في انهيار دولة الخلافة حيث عظم نفوذ الأجانب وخاصة اليهود الذين أخذوا يسيطرون على مختلف الأمور في دولة الخلافة، ويدبرون الخطط لكي يسقطوا دولة الخلافة، وتم لهم ذلك في النهاية.

المصادر والمراجع

١- أحمد عثمان: تاريخ اليهود، مكتبة الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م.

٢- أحمـــد نـــورى النعيمى: أثر الأقلية اليهودية فى سياسة الدولة العثمانـــية تجاه فلسطين، رئاسة جامعة بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٢م.

٣- أكمل الدين إحسان: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إستانبول، ١٩٩٩م.

٤- ثـــريا شـــاهين: دور الكنيسة فى هدم الدولة العثمانية، ترجمة محمد حرب، جدة، ١٩٩٧م.

٥- جواد رفعت أتلخان: أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين رضا، المختار الإسلامى، القاهرة، ١٩٧٥م.

٦- رفـــيق شـــاكر: الســـلطان عبد الحميد الثانى وفلسطين، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٠م.

٧- ضـــابط تركى: الرجل الصنم.. كمال أتاتورك، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، بيروت، ١٩٧٨م.

٨- عايدة العلى: دولة المثلث بين فكى الكماشة، دار الفكر العربى، بيروت، ١٩٩٧م.

٩- عـــبد الرحمـــن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٢٩٧هـــ .

١٠- عـــبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٩٢م.

١١- علـــى حســـون: الدولة العثمانية، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٣م.

١٢-كمـــال السعيد حبيب: الأقليات والممارسة السياسية فى الخبرة الإســـلامية، رســـالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٩٥م، ج٢.

١٣- محمـــد جمـــيل بيهم: العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب، المطبعة الوطنية، بيروت، ١٩٥٧م.

١٤- موفـــق بنى المرجه: صحوة الرجل المريض، مؤسسة صقر الخليج، الكويت، ١٩٨٤م.

١٥-هـــدى درويـــش: الإســـلاميون وتركـــيا العلمانية، دار الآفاق العربية، ١٩٩٨م.

١٦- هـــدى درويش: العلاقات التركية اليهودية، دار القلم، دمشق، ٢٠٠١م.

١٧- يلمـــاز أوزتونـــا: تـــاريخ الدولـــة العثمانية، مؤسسة فيصل إستانبول، تركيا، ١٩٩٠م.

١٨- يلمـــاز أوزتونـــا، الدولـــة العثمانية، نقلاً عن آراء: الراهب الأرمـــنى ســـيحون. ويلامونت. Les Voyages, Du Loir, Corneille le Bruyn, Comte de Bonneval.

الدوريات :

١٩- جريدة الأنباء الكويتية ، مارس ، ١٩٨٤م.

المراجع التركية :

٢٠- Abdurrahman Kucuk, Donmeler Tarihi, Ankara, ١٩٩٢.



نموذج لتسامح المسلمين مع الآخر

المسلمون يدافعون عن اليهود ضد الاضطهاد الأوروبي

أ.د/ أحمـــد عامـــر(*)

تمهيد :

يعد التسامح وحب الآخر ركناً مهماً وأساسياً فى العقيدة الإسلامية فقد وصف الله عباده المسلمين فى القرآن الكريم بأنهم يحبوا مخالفيهم فى الدين فقال تعالى : ﴿هَاأَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران:١١٩]، فالقرآن ينطق بأفصح عبارة وأصرحها واصفاً المسلمين بهذا الوصف الذى هو من أثر الإسلام وهو أنهم يحبون أشد الناس عداوة لهم وهذا دليل على أن هذا الدين دين حب ورحمة وتساهل وتسامح ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نصارى﴾ [المائدة:٨٢]، إنهم لا يحبونكم مع أنكم تؤمنون بكتابهم ومع ذلك تحبونهم ولا يحبونكم وبهذا نحتج على من يزعم أن الإسلام يغرى المسلمين ببغض المخالف لهم فى الدين .. كما أمر الله المسلمين أن يجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسن فقال عز من قائل: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٢٩].

إن علاقة المسلم بالآخر، هذه العلاقة يجب أن تكون علاقة تعاون وتساند – تأثير متبادل – وليس علاقة تعاند وتصادم.

(*) نائب رئيس جامعة قناة السويس (سابقاً).

إن معاداة السامية – منذ هرتزل، هى أفضل مساعي للصهيونية ولقد أعلن رئيس التنظيم اليهودي العالمي، فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٨م لدى افتتاح المؤتمر اليهودي العالمي بجنيف: "أن سقوط معاداة السامية المعلنة يمكن أن يشكل خطراً على البقاء اليهودي .. إن لليهود فى كل مكان تقريباً حقوقاً متساوية مع المواطنين الآخرين، سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي .. ومع ذلك فإن لاختفاء معاداة السامية بالمعنى الكلاسيكي للكلمة – على الرغم من كونه نافعاً للوضع السياسي والمادي للمجتمعات اليهودية – آثاراً سلبية على الحياة الداخلية لحركتنا".

لم يكن "ألفرد درايفوس" يعنى الكثير للعرب والمسلمين، حيث ثارت قضيته فى فرنسا، بين القرنين التاسع عشر والعشرين، دافع المسلمون عن الضابط اليهودي البريء المتهم بالتجسس للألمان .. فرشيد رضا الذى تتلمذ على يد محمد عبده فى مصر، تحدث سنة ١٨٩٨، سنة تأسيسه مجلته "المنار" عن أنباء شاعت فى فرنسا حول "ما قاساه اليهود فيها من الإهانة والاضطهاد وسوء المعاملة". ولم يكن فى وسع رضا، وهو رجل الدين أن يرد تلك البشاعات إلى الدين، إنما ردها إلى "التعصب الجنسى والحسد الذميم أثارهما فى صدر الأمة فئة من أرباب الجرائد المعادين لليهود الطامعين بما فى أيديهم من خزائن الأموال".

بيد أن تلميذ محمد عبده لم يكتف بهذا ، بل نراه يؤكد على تعصب أوروبا حيث "اضطهاد اليهود والهياج عليهم فى فرنسا المتمدنة بسبب مسألة درايفوس الذى اتضحت براءته" .. دافع رشيد رضا عن

درايفوس أقل بكثير مما اعتنى بالمقارنة بين عالم المسلمين وعالم المسيحيين. فلو أن "تلك الحوادث القبيحة جرى مثلها بين الشرقيين"، لطبق السماء صراخ تلك الجرائد وسلقت الشرقيين وآدابهم بألسنة حداد وأقلام أنفذ من السهام؛ بل لو كانت تلك الجرائد فى بلاد تكون فيها ضعيفة الجانب ضعف اليهود فى فرنسا، لكانت أسرع الناس طلباً للحرية المطلقة والعدالة العامة للبشر على اختلاف أجناسهم .. إن الحرية العمومية ليست مختصة بفريق دون فريق. فإن التمدن الصحيح والعدالة الحقيقية يفرضان المساواة المطلقة بين جميع بنى الإنسان فى المنافع العمومية .. فليس واضحاً تماماً أى الرغبتين كانت أقوى عند رضا و" منارة " الدفاع عن اليهود أم الطعن بالحضارة الغربية.

سمح لرشيد رضا بأن يدافع عن درايفوس من دون أن يبدو شاذاً أو متجرئاً على المألوفات، مال بعضا لصحافة الصادرة بالتركية والعربية معاً إلى الضابط المتهم زوراً فى فرنسا، فيما "انتهزت المناسبة لتسجيل بعض النقاط ضد الحضارة الليبرالية الزائفة فى أوروبا" .. ففى الأراضى العثمانية ، أوقفت السلطات توزيع بعض ما نُشر فى سنة ١٨٦٩، وكانت بين وقت وآخر تغلق صحفاً تحرّض على اليهود بوصف التحريض هذا تهديداً للأمن العام". فما يعرف بالعنصرية لم يجد فى النص الإسلامى، وحضارة الإسلام دائرة حول نص ما يغذيه. لقد خلا القرآن والصحيح الثابت من حديث الرسول مما يمكن أن يعد عنصرياً.

إن ما كتبه رشيد رضا ومسلمون آخرون سبقوه يستشف منه أن ثقافتهم غايرت أوروبا المسيحية فى النظر إلى الآخرين. فهى منذ عهد

عهيد، نظرت إلى اليهود والمسيحيين بوصفهم جزءاً منها، جزءاً قد لا يطابقها فى هذا الأمر أو ذاك، وقد يقسو عليه أهلها أو يرتابون به، وهم ميّالون إلى تبويبه بمقتضى هرمية .. غير أن أهم ما فى جمال الدين الأفغانى أنه دفع محاربة الاستبداد إلى مصاف متقدمة، ما يساعد من حيث المبدأ على الشروع فى تأسيس قيم منفتحة ومتسامحة تجمع بين المستبد بهم، بغض النظر عن أديانهم وأعراقهم .. والوجهة هذه التى ترافقت مع سياسات مدحت باشا، الإصلاحى الماسونى الذى أطاح بعبد العزيز فى سنة ١٨٧٦، كانت محكومة سلفاً بحدودها وطابعها المفارق، فـــ "صدمة أوروبا" التى لولاها ما ارتفعت مسألة الاستبداد لتبلغ الرتبة التى بلغتها، كانت هى نفسها توأم التقدم الأوروبى، بالقوة، نحو الشرق.. مع هذا التقى فى بعض أفكاره مع النزعة التحررية لـــ"تركيا الفتاة" التى خاصمها الشيوخ الذين خاصموه. فهو – ومن موقع دينى خاص به – ناهض ما يمكن اعتباره التنظيم الأصولى الأول الذى أنشأه عبد الحميد.

إن رشيد رضا حين دافع عن درايفوس، ما كان ماثلاً فى ذهنه تعاليم أستاذيه اللذين ارتبط باسمهما "الإصلاح الإسلامى" : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، فقد كانت كراهية الغرب حاضرة على الدوام فى "وعى هذا، إلا أن حب الغرب كان هناك أيضاً فورثه طه حسين ومحمد حسين هيكل ورفاقهما وطوروه على طريقتهم. والحق أن "الإصلاح" إنما تشكل من هذين الحب والكراهية معاً، فغدا يستحيل من دونهما النظر إلى الصلة الإسلامية بالآخر عند نهاية القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين.

فالأفغانى كان السيد الذى وجد من يتهمه بالجاسوسية، ومن يشك بإلحاده، والمسلم الذى عُرف بصلته الوثيقة بالمسرحى المصرى

اليهودى يعقوب صنّوع، كذلك كان الوجه الكوزموبوليتى المبكر الذى صارع حكاماً كثيرين وعاش فى أمكنة عدة .. حتى إن الخديوي توفيق حين نفى جمال الدين، نفاه بوصفه "رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا". وكان شاه إيران، ناصر الدين، نفاه فى سنة ١٨٩١م، فيما ظهر من يربط جمال الدين بمقتل الشاه بعد سنوات خمس.

من التكهنات والرغبات التى راحت تُلصق إلصاقاً بالتاريخ منذ اتساع الفجوة العربية – التركية، وبالأخص منذ سنة ١٩١٣. ولئن شارك فى تضخيم الوهم كون بعض الضباط الذين أطاحوا بعبد الحميد ماسوناً ، شكل وعاظ ورجال دين عرب، يبثون دعوته بلغة القرآن بين الرعايا والناطقين بالضاد.

وفيما لم يتلكأ خصومه الرجعيون فى استخدام شيعيته ضده فى البلاط العثمانى، اهتم جمال الدين بـ"إزالة" السنى – الشيعى، ومن ثم الفارسى – الأفغانى والفارسى – التركى، عملاً بنظريته فى الوحدة والجامعة الإسلاميتين القابلة لتعدد التأويل، على أن رابطة الدين لم تتعارض، فى عرفه مع رابطة القومية فأذاع نداءً إلى مسلمى مصر والهند يقضى بحسن معاملة غيرهم من أبناء أممهم، وحين أنشأ "العروة الوثقى" وجهها إلى "الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً" ، وطلب المساواة فى المراعاة بين المسلمين وغير المسلمين شرط أن لا يصدر عن أحد من الأخيرين "ما يضر بشوكة الإسلام"، وفى هذا المعنى السياسى والحديث لم يتردد مستشرق متعاطف، كمكسيم رودنسون، فى المماثلة بينه وبين ثيدور هرتزل لحظة تصديه لإنشاء دولة يهودية، ففى

الفترة إياها كان أبو القومية الإسلامية، جمال الدين الأفغانى ، يصرف عمره مثل هرتزل، ليرى أى الدول يمكن أن تدعم مشاريعه، محاولاً أن يلعب الواحدة منها ضد الأخرى.

لم يعد المسلون المرايا الوحيدة لذواتهم وصورتهم فى هذا العالم، فالأفغانى بدأ مهجوساً بسلطة غير مستبدة هجاسه بأوروبا وما يعنيه لها الإسلام والحكم الذى يمكن أن تصدره عليه. وبسلبه وإيجابه كان لهذا التعويل على الآخر المتفوق، أن منح الأفغانية جدتها النسبية قياساً بالسائد .. فالإسلام إذ ينظر إليه سياسياً، وبالأحرى نضالياً وضدياً كحصن لـــ "الهوية" فى مواجهة "الآخر"، يجعل وطأة التاريخ عبء تركته يصادران التقدم الذى وعد به الإسلام المذكور.

الإغفال عن بعض المعلومات المدرسية الذائعة، فأبسط إلمام بالولايات المتحدة وتاريخها الحديث يعلمنا أن اليهود تعرضوا لأكثر من مد معاد للسامية كان آخرها مطالع الخمسينات، والمد هذا إنما كانت مناسبته الكشف عن قيام الشيوعي اليهودي جوليوس بوزنبرغ وزوجته إيثيل، بتسليم بعض أسرار القنبلة الذرية إلى الاتحاد السوفيتي، هكذا أعدم الزوجان فى سنة ١٩٥١، عشية صعود المكارثية الظافر، وسط أجواء مهتاجة تستعيد الأوصاف "التآمرية" والشيوعية" لليهود.

ولم ينفصل هذا التطور، منا ناحيته، عن تحول عام فى المزاج الأميركي الذي بدأ يمنح العداوة لستالين، تحت وطأة الحرب الباردة، لا لهتلر الذي اندحر وانتحر، وإذا انطوى التحول هذا على محاولات لتهريب بعض النازيين واستخدامهم فى الحرب الباردة ضد الشيوعية،

فإن طغيان المشاعر الليبرالية واليسارية على البيئة اليهودية الأميركية لم يكن عنصراً مُريحاً.

وكانت المفارقات الدالة أن إعدام الزوجين روزنبرغ جرى فى مؤازراة حملة الصحافة السوفياتية على "الكوزموبوليتية" اليهودية، وقبل عام على محاكمة "العميل الصهيوني" والأمين العام للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، رودولف سلانسكي وإعدامه، وقبل عامين على "مؤامرة الأطباء" اليهود الستالينية الشهيرة.

فاليهود ، في سنة ١٩٣٤، يملكون وسائل الدعاية من صحافة وإذاعة وسينما فى الولايات المتحدة، و"لا يستطيع أن ينشر أكبر العلماء حقيقة تاريخية أو علمية إذا كانت مخالفة لمصالح اليهود"، وكذلك الحال فى إنجلترا وفرنسا حيث لهم السيطرة على الصحف والأحزاب، أما فى ألمانيا نفسها فقد عجز هوجوشتينز "الألماني الوطني" عن مقاومتهم بواسطة سبعين صحيفة كان يملكها فى برلين وغيرها، ولولا الهتلريون كانت لهم صحف ألمانيا كلها إلا الكاثوليكية، أبعد من هذا أن يهود أميركا ويهود الهند يسعون لتغيير شكل الحكم والإدارة فى الهند لأسباب اقتصادية تهمهم، مما يدل على أن للمركيز ردينغ (نائب المالك اليهودى) ضلعاً فى قضية الهند، أنه وعد مسلمي الهند بإعطائهم حقوقاً كثيرة فى دستور الهند الجديد إذا هم عدلوا عن مساعدة عرب فلسطين.. وهو يكتشف فى سنة ١٩٣٥، أن اليهود السوفيات "استولوا على مقاليد سياسة روسيا الخارجية"، لكن اليهود ، فى سنة ١٩٣٨، يعقدون مؤتمراتهم فى الصين وفى الولايات المتحدة لتدبير أمور الصين

ومقاومتها لليابانيين، وهم الذين يدبرون الأمور بين الصين وروسيا الشيوعية، علماً أن العام الذى تلا وشهد توقيع معاهدة التحالف الستالينى – الهتلرى، حول معاداة السامية فى الاتحاد السوفياتى إلى سياسة أمر واقع .. لكن الحرب العالمية الثانية، توضح استيلاء اليهود على زمام الأمور فى واشنطن وتحريضهم على الحرب .. وهو لا يلبث أن يستطرد فى سيناريو للخيال العلمى عن أدوار عدد من الوزراء اليهود فى البلدان الغربية لدفع بلدانهم والعالم نحو الحرب. فى أواخر سنة ١٩٤٧م بأن ملك رومانيا الشاب يريد أن يتزوج بامرأة بوربونية لا بمومس يهودية كما فعل أبوه، فإنه يستنكر – بعد عامين – دخول ثلاثة من الأغوار الدمشقيين كنيساً لليهود السوريين ورشقهم بقنابل أودت بـــ ١٤ قتيلاً وجرحت ٢٠؛ بل يستنكر اهتمام الناس بهذا العمل كما لو أنه وقع على قرية عربية فى فلسطين.

أما ألمانيا نفسها فقد عجز هوغاوشتينز "الألمانى الوطنى بواسطة سبعين صحيفة كان يملكها" رفضت دور النشر الفرنسية طبع كتاب جارودى "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" خوفاً من اللوبى الصهيونى .. قدم اللوبى الصهيونى جارودى للمحاكمة بسبب ما ذكره عن عدالة محكمة نومبرج، ودعوته للبحث العلمى فى الرقم المقدس للهولوكست: ٦ ملايين يهودى .. ومع ذلك فطبقاً لقانون فابيوس – جيسو، تمت محاكمة جارودى، وغرمه القاضى ٢٠,٠٠٠ فرنك، استأنف جارودى الحكم، واعتدى صهاينة بيتار على الصحفيين والإعلاميين العرب والإيرانيين على عتبة المحكمة، وطاردوهم حتى

محطة مترو الأنفاق وأصابوهم بما يستلزم علاجاً فى المستشفى .. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد تلقى جارودى عدة مكالمات هاتفية تهدده بالقتل، وتم الاعتداء على المكتبات التى تبيع كتبه فى فرنسا وسويسرا واليونان، حتى امتنعت عن ذلك .. أن هناك عشر دول أوروبية أصدرت قوانين شبيهة بالقانون الفرنسى، وأن هناك محاولات لتصعيد مثل هذا القانون للأمم المتحدة، الأمر الذى يعنى أن تشهر الأمم سيفها لحساب الصهاينة.

التسامح من خلال قراءة لقانون الحرب في الإسلام وفي القانون الدولي العام

أ.د. جعفر عبد السلام (*)

مقدمة :

لعله من أهم القضايا التى اهتم بها الإسلام اهتماماً بالغاً واحتلت مســاحة كبــيرة فى دستور الأمة الإسلامية وهو القرآن الكريم قضية التســـامح، وكأن القرآن الكريم يبادر بالدفاع عن الدعوة الإسلامية وعن المــد الإسلامي ووصلوه إلى كل ربوع الدنيا ، ويترقب ما يدعيه أعداء الإســـلام زوراً وبهـــتانا من أن الدين الإسلامي دين جبر وعناد وإكراه واضطهاد، ولذا فهو يركز على إثبات السماحة والتراحم والبر والصلة بيـــن بـــنى البشر جميعاً قبل بزوغ هذه الفرية، وقبل إثارة هذه الشبهة، ومن أدل آيات القرآن الكريم على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّـيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِــيمٌ * وَمَـا يُلَقَّاهَــا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:٣٤-٣٥]، وبهذا يرشد الإسلام أتباعه وأهله إلى التسامح العظيم والصـــفح الجميل ودفع السيئة بالحسنة، وذلك هو الطريق الكريم الذى يجلب الود الخالص، بل يحوّل العداوة الشديدة إلى حب شديد.ومما يؤكد علـــى أن القـــرآن الكريم والشرع الإسلامى يريد أن تسرى هذه الروح الطيبــة لا بين المسلمين فقط، بل بينهم وبين العالم أجمع على اختلاف الأشـــكال والألوان واللغات والديانات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

(*) الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية.

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]، وقوله سبحانه : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وقوله عز وجل: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة:٨-٩].

ولم يكتف الإسلام فى اهتمام القرآن بقضية التسامح إلى هذا الحد، بل جاءت السنة النبوية أيضاً تقاسم هذا الاهتمام ويعلن من خلالها رسول الله ﷺ احترامه للآخرين وتقديره لهم وتسامحه معهم والدفاع عنهم، حتى وإن كانوا على غير دينه ومن ذلك قوله ﷺ: "من ظلم معاهدا أو انتقص حقاً له أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه فأنا خصمه يوم القيامة"[1].ومنه أيضاً قوله ﷺ "من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة" وقوله ﷺ: "من آذى ذمياً فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله"[2]. ومرت به ﷺ

---

(١) رواه أبو داود والبيهقى.

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط.

جنازة فقام لها وقام معها أصحابه وقالوا يا رسول الله إنها جنازة يهودى فقال: "أو ليست نفساً، إذا رأيتم الجنازة فقوموا"(١).

ويصل تسامح رسول الله ﷺ إلى أقصى حد فى تطبيقاته العلمية وذلـك فـى فـتح مكة، عندما دخلها ظافراً منتصراً بعد أن خرج منها مذمومـاً مدحـوراً، إذا به يفاجئ أعداءه بصورة من التسامح ليس لها مثـيل عـندما أحكم قبضته عليهم، وقال لهم : ما تظنون أنى فاعل بكم قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ألا وأن من عظمة الإسلام ألا يقف بالتسامح فقط عند حالة السلم والمهادنـة؛ بـل يجعل من حالة الحرب مجالا خصب لتطبيق التسامح وذلـك حتى يخفف من ويلاتها، ويقلل من آلامها وآثارها، وتمتلئ كتب السـير والـتاريخ ومعها كتب الفقه الإسلامى بالنماذج الطيبة التى كان يعـامل من خلالها رسول الله ﷺ أعداءه وأشد الناس عليه، كما تمتلئ بالمـبادئ والقواعـد الـتى تفـيض سماحة ورحمة فى معاملة ضحايا الحروب من الجرحى والمرضى والقتلى وغيرهم.

هـذه القواعـد وتلكـم المبادئ الإسلامية العظيمة التى شرعها الإسـلام أثـناء الحـرب وبعدها، وإن اتفقت والقانون الدولى الإنسانى المعاصـر فـى كثـير منها، إلا أنها لا زالت تسمو على هذه الأحكام الوضعية بكونها شريعة دينية سماوية تحظى بالجلال والكمال والطاعة والاحـترام والتقدير، وذلك لكونها جزءاً لا يتجزأ من الدين الإسلامى، أمـا الأحكـام الوضـعي فإن الواقع ينطق بأن أهلها ينقضون أحكامها وواضعوها غير محايدين فى تطبيقها.

---

(١) رواه البخارى.

وتــبرز ســماحة الإسلام أثناء الحرب بروزاً شديداً، سواء على مســتوى القواعــد التى تحكم سلوك المحاربين أم على مستوى القواعد التى تحمى الضحايا والمصابين، وهاتان الناحيتان اللتان سنركز عليهما فــى البحث مقارنين بما عليه الأمر فى القانون الدولى العام، وأسأل الله عز وجل التوفيق والسداد والهدى والرشاد.

المبحث الأول

التسامح من خلال القواعد التى تحكم سلوك المحاربين

نجد الاهتمام الحديث بتقنين القواعد التي تحكم سلوك المتحاربين والتى يرجع العديد منها إلى العرف الدولى – إلى منتصف القرن التاسع عشـــر حيث وضع ميثاق سان بترسبورج عام ١٨٦٨م، ولكن اتفاقيات لاهـــاى التى أبرمت عامى ١٨٩٩، ١٩٠٧م، هى التى وضعت قواعد مفصـــلة بهذا الخصوص إلى الحد الذى جعل الدول تسمى هذه القواعد باســـم قـــانون لاهـــاى، وقد نظم سلوك المحاربين فى الحروب البرية والبحرية ووضع بعض القواعد الخاصة بالحرب الجوية.

ونستطيع أن نستخلص بعض المبادئ العامة من هذه الاتفاقيات ينبغي أن تحكم سلوك المحاربين وهى:

أولاً : مبدأ الإنسانية :

يّســلّم الفقـــه القانوني كله ، بل والفكر الإنساني المعاصر بأن الحـــرب ظاهـــرة ســـيئة، لذا تحكمها قاعدة أساسية هى أن الدول فى العلاقات السلمية يجب أن تفعل أفضل الممكن، أما فى العلاقات الحربية فيجب أن تفعل أقل سوء ممكن[١]. وهكذا فمن شأن مبدأ الإنسانية أن نقصر الحرب فى العلاقات بين الدول بحيث لا يصير الأفراد أعداء إلا بشـــكل عـــارض، وبوصـــفهم جنوداً فحسب على ما أوضح جان جاك روسو.

---

(١) “Que les nations doivent se faire dans la paix, la puls de bien possible et dans la guere le moins de mal Possible”.

ومن ناحية أخرى فمن شأن مبدأ الإنسانية حماية الأفراد المدنيين أو الذيـــن لا يملكون وسائل للدفاع عن أنفسهم وتجنيبهم ويلات الحرب وكذلـــك فـــإن المحارب ليس مطلق الحرية فى أن يستخدم ما يشاء من الأســـلحة؛ بـــل علـــيه أن يقصر استخدامه على ما لا يحقق أذى كبيراً بالأفـــراد مراعاة لإنسانيتهم، كما يجب أن يتخلى عن القتال إذا ما كفت مقاومة العدو.

١- التمييز بين المحاربين وغير المحاربين :

أسهمت النظرية التقليدية فى إرساء هذا التمييز حيث كان القانون الدولـــى قـــبل القرن الثامن عشر يعد العلاقة الحربية علاقة عداء بين جميع مواطني الدولة، المقاتلين والمدنيين على السواء، وعلى ذلك كان يكثر قتل ما كانت تقوم الجيوش المسلحة باعتبارهم أعداء أيضاً دون قيد أو شـــرط؛ بـــل وكثيراً ما كانت تقوم الجيوش بذبح سكان الإقليم الذى تغـــزوه رجـــالاً ونساءً وأطفالاً، عجزة وأقوياء، وظل الأمر كذلك حتى بدت بعض العوامل التى أثرت فى الحرب وخففت من همجيتها ودعت إلى قصر ما يوجه من أعمال القتال على القوات المتحاربة دون الشعب الآمـــن، وأوجبـــت عـــدم التعرض لأشخاصه وأملاكه بسوء إلا بداعى الضـــرورة أو فـــى حالات خاصة وعلى أثر هذه العوامل ظهرت فى أوائـــل القـــرن التاســـع عشر فكرة أن الحرب ليست علاقة عداء بين المواطنين، وإنما هى علاقة بين الدول فقط، وقد وضعت هذه الفكرة فى القـــانون الدولـــى التلقيدى الأساسى القانونى لمبدأ التمييز بين المقاتلين

وغـير المقاتليـن[1]. وتبـناها بعد جان جاك روسو الفقهاء بورتاليس وتالـيران، وأسـاس هذا التمييز هو ضرورة حماية المدنيين من أهوال الحـرب، وإن كان هذا التمييز قد انتقد لأنه – رغم كفالته حماية من لا يقـاتلون – إلا أنـه يطلب منهم فى نفس الوقت أن يمثلوا دور الشهود الخـرس أمـام ملهاة الحرب، إذ يشترط عدم مساهمتهم فيها بأي شكل حتى يمكن أن يستفيدوا بهذه الحماية.

ومـع ذلـك فقد حاولت اتفاقيات جنيف (١٩٤٩) وملحقاها (١٩٧٧) أن يدعموا هذا التقسيم ويفرضوا على المحاربين احترامه.

فقـد أورد البروتوكول الملحق باتفاقية جنيف العديد من الأحكام بهذا الصدد فنص على أنه "يتمتع السكان المدنيون والأشخاص المدنيون بحماية عامة ضد الأخطار الناجمة عن العمليات العسكرية .." ولتحقيق فاعلية هذا المبدأ قرر الملحق الأحكام الآتية :

١- حظـر الهجوم على المدنيين أو توجيه أعمال العنف الرامية إلى بث الذعر بينهم أو التهديد بذلك.

٢- حظـر الهجمات العشوائية، وهى تلك التى لا توجه إلى هدف عسكرى محدد أو التى تستخدم طريقة أو وسيلة للقتال لا يمكن حصـر آثارهـا، ومـن ثم فإن من شأنه أن تصيب الأهداف العسكرية والمدنية دون تمييز.

---

(١) د. محمـود سامى جنينه: بحوث فى قانون الحرب، مجلة القانون والاقتصاد ص١٤٩، العدد الأول من السنة الحادية عشرة، ذى الحجة ١٣٥٩ هـ – يناير ١٩٤١م.

وقد اعتبر الملحق من قبيل الهجمات العشوائية :

(أ) الهجـــوم قصـــفاً بالقنابل الذى يوجه إلى عدد من الأهداف العسكرية الواضحة التباعد والتمييز بعضها عن البعض الآخر والواقعة فى مدينة أو بلدة أو قرية أو منطقة أخرى، تضم مركزاً من المدنيين أو الأعيان المدنية على أنها هدف عسكرى واحدة.

(ب) الهجوم الذى يمكن أن يتوقع منه، أو يتسبب عنه خسارة فى أرواح المدنييـــن أو إصابة الأعيان المدنية، أو أن يحدث خلطاً من هذه الخســـائر والأضـــرار، يفـــرط فى تجاوز ما ينتظر أن يسفر عنه ذلك الهجوم من ميزة عسكرية ملموسة ومباشرة.

(جـ) حظر هجمات الروع ضدهم.

٣- ومن ناحية أخرى منع الاتفاق التذرع بوجود السكان المدنيين لحماية نقاط أو مناطق معينة ضد العمليات العسكرية، ولا سيما فـــى محاولة درء الهجوم على الأهداف العسكرية أو تغطية أو إعاقة العمليات العسكرية.

٤- وقد أوجب الاتفاق على كافة الأطراف اتخاذ التدابير الوقائية لعـــدم إصابة السكان المدنيين: فيجب أن تبذل رعاية متواصلة فـــى إدارة العمليات العسكرية من أجل تفادى السكان المدنيين والأعيان المدنية. كما يجب تجنب إقامة أهداف عسكرية داخل المناطق المكتظة بالسكان أو بالقرب منها، وكذلك يجب اتخاذ أية احتياطات أخرى لحماية المدنيين.

مـــن ذلك ما تقرر فى تصريح بطرسبورج عام ١٨٦٨ من منع اســـتخدام قذائـــف يقل وزنها عن ٤٠٠ جرام أو منع قذائف تتفتت فى

داخــل الجســم مــثل "قذائف دمدم Dum-dum"[1]. وكذلك الأسلحة البكترولوجية، والغازات السائلة أو المنتجات السامة[2].

ويســرى هذا الحظر على أسلحة التدمير الجماعى، وهى على الخصوص الأسلحة الذرية، التى تعبر من ناحية أسلحة سامة، كما أنها تســبب آلاماً لا مبرر لها، وتحدث آثاراً أخرى مدمرة للبشرية، ولذاتها بل ولكرامتها.

وقد بحثت هذه المسألة فى مؤتمر جنيف الخاص بتدعيم وتطوير اتفاقــيات جنــيف لعام ١٩٤٩م والذى عقد عدة دورات ابتداء من عام ١٩٧٢ حتى عام ١٩٧٧م وقد استقر الرأى على إضافة أنواع جديدة من الأســلحة الــتى تســبب آلامــاً لا مبرر لها، والتى كثر استخدامها فى الــنزاعات الدولية المسلحة ومنها النابالم والفوسفور الأبيض، وغيرهما مــن الأسلحة التى تصيب المدنيين والعسكريين على السواء بآلام شديدة لا مبرر لها.

ومع ذلك فإن الدول الكبرى التى تملك أسلحة ذرية، وقفت ضد اختصــاص المؤتمر بالنص على تحريم الأسلحة الذرية على أساس أن ذلــك يدخل فى اختصاص لجنة نزع السلاح التى شكلت فى إطار الأمم المتحدة.

وفــى ترســيخ مبدأ التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين ركّزت المــادة ٤٨ مــن الــبروتوكول الأول الملحــق باتفاقات جنيف ١٩٤٩ والمعتمد فى ١٩٧٧ على ذلك بقولها "تعمل أطراف النزاع على التمييز

(١) راجع إعلان لاهاي ١٨٩٩م .

(٢) تصريح واشنطن الصادر عام ١٩٢٢ وبروتوكول جنيف الموقع فى ١٧ يونيو عام ١٩٢٥م .

بين السكان المدنيين والمقاتلين وبين الأعيان المدنية والأهداف العسكرية، ومن ثم توجيه عملياتها ضد الأهداف العسكرية دون غيرها، وذلك من أجل تأمين احترام وحماية السكان المدنيين والأعيان المدنية".

ولا يقتصر التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين على النزاعات الدولية المسلحة فقط، بل يمتد أيضاً إلى النزاعات المسلحة غير الدولية أيضاً، وإن لم يرد نص خاص فى البروتوكول الثانى الخاص بالنزاعات المسلحة غير الدولية عام ١٩٧٧م إلا أن ما ورد فى المادة الثالثة المشتركة فى اتفاقيات جنيف الفقرة الأولى البند الأول حرف (أ) من النص على حماية الحياة والسلامة البدنية للأشخاص الذين لا يشتركون فى الأعمال العدائية، يفترض احترام هذه القاعدة ورسوخها، كما أن نص المادة ٢/١٣ من البروتوكول الثانى ١٩٧٧ على حماية المدنيين وحظر الهجوم عليهم أيضاً وحظر أعمال العنف أو التهديد أو التى ترمى إلى بث الذعر بينهم يعنى فى وضوح تمييز المدنيين عن المقاتلين.

١. التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين فى الشريعة الإسلامية

ومن يقلب النظر فى الفقه الإسلامي يستطيع أن يجد مبدأ التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين راسخاً، ويقوم على أساس قوله – تعالى –: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

وقد ورد عن ابن عباس وعن ابن عبد العزيز ومجاهد أن معنى هذه الآية: قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم ولا تعتدوا فى قتل النساء

والصبيان والرهبان وشبههم[1]، وعلى ذلك فإن أعمال القتال لا توجه إلا للمقاتليــن الذيــن أعدوا أنفسهم للقتال وتفرغوا له، سواء باشروا القتال بــالفعل أم كانوا احتياطيين مدخرين لوقت الحاجة، أما غيرهم ممن لا يقــوى علــى القتال من الشيوخ والعجزة والنساء والأطفال والمتفرغين للعبادة والفلاحين والتجار والصناع، فهؤلاء غير مقاتلين لا توجه إليهم أى من الأعمال الحربية.

ويدعم هذا المبدأ أيضاً كثير من أحاديث الرسول ﷺ ومنها: ما رواه ربــاح بــن الربيع أنه خرج مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاها، وعلى مقدمته خالد بن الوليد، فمر رباح وأصحاب رسول الله ﷺ على امــرأة مقــتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا ينظروا إليها ويتعجبون من خلقهــا حتى لحقهم رسول الله ﷺ على راحلته، فانفرجوا عنها، ووقف علــيها رسول الله ﷺ فقال: "ما كانت هذه لتقاتل ، وقال لأحدهم الحق خالداً فقل له : لا تقتلون ذرية ولا عسيفاً"[2].

وكــان رسول الله ﷺ إذا أمّر أحداً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: "اغزوا باسم الله فــى ســبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً"[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرىن، القرطبى (١/ ٣٤٨)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير،(١/٢٢٦).

(٢) سنن ابن ماجة – كتب الجهاد – باب الإغارة وقتل النساء والصبيان، (٩٤٨/٣) .

(٣) صــحيح مسلم – كتاب الجهاد والسير باب تأمير الإمام والأمراء على البعوث، مجلد ٤ جـــ ١٢، ص ٣٧ .

وعـــن أبى بكر الصديق أنه بعث جيوشاً إلى الشام فخرج يمشى مع يزيد بن أبى سفيان، وكان أمير ربع من تلك الأرباع، ومما قاله أبو بكر له: إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا أنهـــم حبســـوا أنفسهم له، وستجد قوماً حلقوا عن أوساط رؤوسهم من الشـــعر فاضرب ما ظهر عنه بالسيف، وإني موصيك بعشر: "لا تقتلن امـــرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكله ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه ولا تغلل ولا تجبن"[1].

وإذا كـــان التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين مبدأ راسخاً فى النزاعات الدولية فهو أشد رسوخاً فى النزاعات الداخلية بين المسلمين إذ المحافظة على أرواح غير المقاتلين من المسلمين أولى بكثير من الحفاظ علـــى غـــير المسلمين، ويدل على ذلك ما قاله الرسول ﷺ لعبد الله بن مسعود: هل تدرى يا بن أم عبد كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: "لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيؤها" وإذا كان الواجب عدم الإجهاز على الجريح أو قتل الأسير، فوجوب ترك من لا يقاتل أولى.

٢. احترام مبدأ حسن النية فى الأعمال الحربية:

ويميز الفقه بهذا الصدد بين الحيل المشروعة Ruses Licites وبيـــن وسائل الخديعة Les moyns Perfides ، فالأولى مشروعة، والأخـــيرة غير مشروعة، وعلى ذلك فمن المباح نصب كمائن للعدو أو

---

(١) موطأ مالك، كتاب الجهاد، باب النهى عن قتل لناس، والولدان فى الغزو(٣٥٨/٢) .

استدراجه للنيل منه، إنما من المحظور استخدام علامة أو إشارة معروفة ومحمية دولياً كعلامات الصليب الأحمر، أو الأعلام البيضاء، لستر عمليات حربية[1].

وهناك التزام عام آخر على المحاربين وهو إنقاذ واحترام الحياة الإنسانية بقدر الإمكان لذلك يجب الكف عن القتال فور إلقاء العدو للسلاح أو عرضه التسليم، وكذلك يحظر التعامل مع غير المقاتلين معاملة لا تتفق مع حالتهم.

ومن المسائل محل المناقشة استخدام زى للعدو أو علاماته. ونحن نعتقد أنها تعد من قبيل الخديعة المحرمة كذلك.

---

(١) نظم المؤتمر الدبلوماسى لتأكيد وتطوير القانون الدولي الإنساني المطبق فى النزاعات المسلحة والذى عقد أربع دورات فى جنيف (٧٤-١٩٧٧) هذه المسألة فى البروتوكول الأول الذى أعد ليحلق باتفاقيات جنيف المبرمة فى أغسطس عام ١٩٤٩م تحت عنوان "حظر الغدر" ونص علـى أنه "يحظر قتل الخصم أو إصابته أو أسره باللجوء إلى الغدر . وتعتبر من أعمال الغدر تلك الأفعال التى تستثير ثقة الخصم مع تعمد خيانة هذه الثقة، وتدفع الخصم إلى الاعتقاد بأن له الحق أو عليه الالتزام بمنح الحماية طبقاً لقواعد القانون الدولى التى تطبق فى النزاعات المسلحة" وعددت الاتفاقية هذه الأفعال كأمثلة على الغدر:

(أ) التظاهر بنية التفاوض تحت علم الهدنة أو الاستسلام.

(ب) التظاهر بعجز نتيجة جرح أو مرض.

(جـ) التظاهر بوضع المدنى غير المقاتل .

(د) التظاهر بوضع يكفل الحماية . وذلك باستخدام شارات أو علامات أو إذاعات محايدة خاصة بالأمم المتحدة أو إحدى الدول المحايدة أو بغيرها من الدول التى ليست طرفاً فى النزاع (المادة(٣٧)، ولم تحظر الاتفاقية خدع الحرب وهى تلك التى "لا تستثير ثقة الخصم فى الحماية التى يقررها القانون الدولى" والتى تهدف إلى تضليل الخصم أو استدراجه إلى المخاطرة، ولكنها لا تخل بأية قاعدة من قواعد ذلك القانون التى تطبق فى النزاع المسلح. ومن الأمثلة التى ذكرتها للحيل المشروعة: استخدام أساليب التمويه والإيهام وعمليات التضليل وترويج المعلومات الخاطئة.

ويتضـــح مـــن ذلـــك أن الخصوصية الأساسية لقانون الحرب مراعاته للإنسانية، وعدم الإضرار بها.

وهكـــذا، فأثـــناء ممارسة العمليات القتالية" يجب أن يخضع كل طـــرف أعماله لمبدأ أن الاستخدام الشرعي للسلاح أو لوسيلة الإيذاء لا ينبغـــي أن تـــرجح الهدف العسكري المبتغى من استخدامه" بمعنى أن يستهدف إخراج خصمه من المعركة بصرف النظر عن الإضرار به أو إيذائه.

ونعـــتقد أن هذا المبدأ قد نتج من التعاليم الإسلامية أساساً، إذ لم يعرف فى أوروبا إلا منذ زمن حديث.

وقـــد ســـبق أن ذكـــرنا أول المـــبادئ التى تقوم عليها الشريعة الإسلامية فيما يختص بالعلاقات مع غير المسلمين، مبدأ احترام الكرامة الإنســـانية، ولهذا المبدأ تأثيره المهم على قانون الحرب الإسلامى ، وقد نقـــل عن الرسول ﷺ أنه كان يوصى صحابته وقواده بقوله: "انطلقوا باســـم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صـــغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا ، وإياكم والمثلة وأصلحوا وأحسنوا، فإن الله يحب المحسنين".

وتأسيســـاً علـــى ذلـــك فإن الإسلام فرق بين المحاربين وغير المحاربيـــن: فالأعداء غير المحاربين الذين لا يشتركون فى القتال، ولا يقـــدرون علـــى ذلـــك يتمتعون بحماية خاصة، ويستثنون من الأعمال

العدائـــية، لـــذا لا يحل قتلهم ولا مهاجمتهم ولا التعرض لهم بأى وجه آخر(١).

كمـــا فرض الإسلام على المسلمين حسن معاملة أسرى الحرب وجـــرحاها ومرضـــاها، بل إن القرآن الكريم قد أوصى بذلك فى محكم آياتـــه فى قوله – تعالى- : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨].

ونشـــير فى النهاية إلى أن الواقع العملى كثيراً ما لا يحترم هذه المـــبادئ، وعلـــى نحـــو ما نرى فى مبدأ التفرقة بين المحاربين وغير المحاربيـــن، فلـــم يعد الآن لهذه التفرقة أية قيمة بعد استخدام الطيران، ومحاولة الدول المتحاربة إضعاف الروح المعنوية لدى عدوها باستخدام الحـــرب الشاملة التى تمس كل فئات الشعب المحاربة وغير المحاربة. كذلـــك كثيراً ما تخالف الدول الحظر المفروض على الأسلحة وتستخدم أنواعاً محرمة منه، وهكذا.

وتقوم إسرائيل بمخالفات كثيرة وواضحة لهذه القواعد منذ قيامها ضـــد الفلسطينيين والعرب بشكل عام، وقامت سياسة شارون الذى كان دخوله المسجد الأقصى عام ٢٠٠١م سبباً لقيام انتفاضة الأقصى الثانية علـــى أســـاس تصـــفية المقاومين النشطاء، وساعدته الولايات المتحدة الأمريكية بإدخال حركات المقاومة الشرعية للاحتلال، حماس، والجهاد، ضـــمن الجماعات الإرهابية التى يجب تصفيتها، كذا استخدام الطائرات المحاربـــة وأشـــد أنـــواع القذائف فى ضربه للمقاومة، وقتل فى عملية

---

(١) محمد بن الحسن الشيبانى: السير الكبير (١/٢٩-٥٥) محمد عبد الله دراز: القانون الدولى العام فى الإسلام ، المجلة المصرية للقانون الدولى، ص ٩٠٨ عام ١٩٤٩م.

واحـــدة فـــى ٢٦ يولـــيو ٢٠٠٢م ثمانية أطفال وستة أفراد وامرأة من المدنيين من منطقة مأهولة بالسكان فى غزة.

ثانياً: مبدأ الضرورة :

مـــن المـــبادئ الرئيسية التى يقوم عليها قانون الحرب هى أن أعمـــال العنف تباح فقط بالقدر الضرورى لتحطيم قوى العدو المسلحة، وقدرتـــه علـــى القـــتال أو المقاومـــة. لذا تحظر كل أعمال تجاوز هذا الغـــرض، وخاصة كل قوة غير ضرورية نحو رعايا العدو أو أمواله، فجـــواز العنف يقدر بقدر ضرورات الحرب فقط، وبعبارات أخرى فإنه يجـــوز للمقـــاتل أن يســـتخدم أى قـــدر من القوة بشرط أن يكون ذلك ضـــرورياً لتحقـــيق هدف الحرب، وهو التغلب على الخصم، وقد رتب القـــانون الدولـــى على ذلك مجموعة من النتائج، فمن ناحية يجب على المقاتلين أن يميزوا بين الأهداف العسكرية، وهى التى تستخدم فى القتال أو تتعلق به ويحق ضربها، والأهداف المدنية، أى البعيدة عن القتال أو التى لا تتصل به فلا يجوز ضربها.

والواقـــع أن ظهور الحرب الشاملة التى توجه إلى كل أراضى العـــدو، وتتجه لضرب كافة منشآته مدنية أو عسكرية، قد أثرت تأثيراً كبـــيراً علـــى هذه القاعدة فى الظروف الحديثة، خاصة بعد أن استخدم الطيران فى إلقاء القنابل والبالونات من أعلى، حيث يصعب التمييز بين الأهـــداف المدنية والأهداف العسكرية، لذلك حرصت اتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩م والملحقان اللذان أضيفا إليها عام ١٩٧٧ على التأكيد على هذا

التميــيز وعلى إعطاء الأهداف المدنية حماية واسعة وسنرى كيف كفلا ذلك الآن.

الأعيان المدنية :

الأعــيان المدنية هى كافة الأشياء التى لا تمثل أهدافاً عسكرية، ومن ثم لا تجوز مهاجمتها، والأهداف العسكرية هى الأعيان التى تسهم مساهمة فعالة فى العمل العسكرى سواء كان ذلك بطبيعتها أم بموقعها أم باستخدامها ، والتى يحقق تدميرها التام أو الجزئى، أو الاستيلاء عليها أو تعطيلها فى الظروف السائدة وقت الحرب ميزة عسكرية أكيدة(١).

وقــد أعطــت المواثــيق الدولية حماية خاصة للأعيان الثقافية وأماكن العبادة، فمنعت توجيه أى عمل من الأعمال العدائية ضد الآثار التاريخــية أو الأعمال الفنية أو أماكن العبادة، ومنعت كذلك استخدامها فى دعم المجهود الحربى، أو اتخاذها محلاً لهجمات الردع(٢).

وتضــمنت المواثــيق الدولــية كذلــك حماية الأعيان والمواد الضرورية لحياة السكان المدنيين مثل المواد الغذائية والمناطق الزراعية والمواشى ومرافق مياه الشرب.

ونجــد حرصــاً فى الوثائق الحديثة على حماية البيئة الطبيعية والأشــغال الهندســية والمنشآت المحتوية على قوى محركة حتى ولو كانت أهدافاً عسكرية، وذلك إذا كان شأن مهاجمتها ترتيب خسائر فادحة

---

(١) المــادة ٢/٥٢ مــن البروتوكول الملحق وقد حرص الملحق على إضفاء الصفة المدنية على الهــدف حــتى لو ثار شك حول استخدامه فى هدف عسكرى مادام أنه مخصص أساساً للأعمال المدنية، كما لو استخدمت مدرسة أو دار عبادة مثلاً لهدف عسكرى.

(٢) راجــع اتفاقــية لاهــاى المــبرمة فــى ١٤ مايو عام ١٩٥٤، وكذلك أحكام المادة ٥٣ من البروتوكول الملحق باتفاقيات جنيف.

بيـــن الســـكان المدنييـــن، ومن أمثلة ذلك السدود والجسور والمحطات النووية لتوليد الكهرباء.

المواقع والمناطق المجردة المنزوعة السلاح :

حظــر الـــبروتوكول الملحـــق باتفاقيات جنيف على الأطراف المـــتحاربة أن تمد عملياتها العسكرية إلى مناطق تكون قد اتفقت على إســـباغ وصـــف المـــنطقة المنزوعة السلاح عليها. وأوجب تحديد هذه المـــنطقة بدقـــة وإظهارها بعلامات واضحة، فضلاً عن استلزام توافر العديـــد مـــن الشروط فيها[1]، ولا يجوز لأى من الأطراف أن يستخدم المنطقة فى أغراض تتصل بإدارة العمليات العسكرية أو أن ينفرد بإلغاء وضعها.

وحظـــر البروتوكول الملحق كذلك على الأطراف، أن يهاجموا بأيـــة وســـيلة المواقع المجردة من وسائل الدفاع، ويكتسب الموقع هذه الصـــفة بـــإعلان من أحد الأطراف يبين أن موقعاً ما يقع بالقرب من مـــنطقة تمـــارس القـــوات المسلحة أو داخلها خالياً من وسائل الدفاع، وبشـــروط هـــى: أن يـــتم إجلاء القوات المسلحة والأسلحة والمعدات

---

(١) أهم هذه الشروط هى :

١- أن يــتم إجــلاء جمــيع المقاتلين وكذلك الأسلحة المتحركة والمعدات العسكرية المتحركة عنها.

٢- ألا تستخدم المنشآت والمؤسسات العسكرية الثابتة استخداماً عدائياً.

٣- ألا ترتكب أية أعمال عدائية من قبل السلطات أو السكان.

٤- أن يتوقف فيها أى نشاط يتعلق بالمجهود الحربى.

المـــتحركة عنه، وألا تستخدم المنشآت العسكرية الثابتة عليه استخداماً عدائياً ، وألا يجرى أى نشاط فيها دعماً للعمليات العسكرية.

ولا يفوتـــنا أن نذكـــر موقـــف الفقه الإسلامى من هذه القضية، فالمـــأثور عن الخلفاء الراشدين، وعلى رأسهم الخليفة أبو بكر الصديق تحـــريم "تخريب البنيان وإحراق النخيل وقطع الكروم وسائر الأشجار المثمرة[1]، وقد ذكر الإمام الأوزاعى فى هذا المعنى "لا يحل للمسلمين أن يفعلـــوا شيئاً مما يرجع إلى التخريب فى دار الحرب، لأن ذلك فساد والله لا يحب الفساد".

وعلى هذا الرأى الحنابلة فى جملتهم، أما المذاهب الأخرى فهى مخـــتلفة فكثير من الأحناف أسقطوا الحصانة عن أموال العدو وأجازوا حرقها أو تخريبها، بينما منع البعض الآخر الاعتداء على الحيوانات أو الطيور فقط دون الزروع والثمار.

---

(١) أوصـــى أبـــو بكـــر يـــزيد بن معاوية يوم بعثه على جيش الشام بما ورد نصه "إنى موصيك بعشر فاحفظهن":

١- أنك ستلقى أقواماً زعموا أنهم فرغوا أنفسهم لله فى الصوامع، فذرهم وما فرغوا له أنفسهم.

٢- وستلقى أقواماً قد حلقوا أوساط رؤوسهم فافلقها بالسيف.

٣- ٥- ولا تقتلن مولوداً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً.

٦-٨- ولا تعقرن شجرة مثمرة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تقطعن كرماً.

٩-١٠- ولا تذبحن بقرة ولا شاة وما سوى ذلك من المواشى إلا للأكل.

وزادت بعض الروايات على ذلك "ولا تغلن ولا تعصين".

راجـــع السير الكبير(٤٣/١) - وراجع أيضاً صبحى محمصانى، القانون والعلاقات الدولية فى الإسلام، ص ٢٦٢ .

ولا شـــك عندنا فى رجاحة الرأى الأول، لأنه هو الذى يتفق مع مـــبادئ الإســـلام حيث جاء بالقرآن الكريم بالتوجيه الرباني: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:٧٧].

كمـــا وصف الكافر بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْـــأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

المبحث الثانى

التسامح وحماية ضحايا النزاع المسلح

اهتمت الاتفاقات التى تمت فى مراحل متقدمة من التاريخ الحديث بحماية ضحايا الحرب من الأسرى والجرحى والمرضى، وكانت حماية هذه الفئات هى التى تغلب على الطابع الإنسانى فى الحرب، ذاتها وعند استخدام القوة المسلحة أياً كان شكل استخدام هذه القوة.

وهكذا نجد أن ضحايا الحرب وهم الجرحى والمرضى والغرقى والأسرى وأيضاً المدنيين فى الأراضي المحتلة قد كفلت الحماية لهم قواعد دولية عرفية شهدت التقنين الدولى فى أكثر من مناسبة، وإن اتخذت الشكل الأساسي المتطور فى اتفاقيات جنيف المبرمة عام ١٩٤٩م والتى اكتملت بملحقين بروتوكولين أضيفا إليها عام ١٩٧٧م فى المؤتمر الدولي الذى عقد تحت رعاية منظمة الصليب الأحمر الدولية[1].ويهمنا أن ندرس هنا الحماية المقررة للأسرى والجرحى والمرضى بشكل عام لنتكلم بعد ذلك عن وضع المدنيين فى ظل الاحتلال الحربى عند حديثنا عن قانون الاحتلال الحربى.

---

(١) الإتفاقية الأولى خاصة بتحسين حال الجرحى والمرضى من أفراد القوات المسلحة فى الميدان ، والثانية خاصة بتحسين حال الجرحى والمرضى والغرقى من أفراد القوات المسلحة فى البحار، والثالثة خاصة بمعاملة أسرى الحرب، أما الرابعة فتتعلق بحماية المدنيين فى الأراضى المحتلة.

ويتعلق الملحق الأول بحماية ضحايا الحرب فى النزاعات الدولية المسلحة، أما الثانى فيتعلق بالنزاعات المسلحة غير ذات الطابع الدولى.

الأسرى:

لعله من الأهمية أن نحدد المقصود بالأسير حتى نعرف الحماية المقررة له. ونجد اتفاقات جنيف قد ربطت بين المحارب والأسير. فذكرت أن كل مقاتل يعد أسير حرب إذا ما وقع فى قبضة الخصم.

وقد كانت مسألة تحديد المحارب من المسائل المختلف عليها فى مؤتمر عام ١٩٧٧م، إذ أن الدول الصغيرة كانت تحاول أن تسبغ حماية وافية على فئات متعددة بحيث يمكن أن يدخل فيها أفراد المقاومة الشعبية دون حاجة إلى استيفاء الشروط المعقدة المنصوص عليها فى اتفاقيات جنيف على خلاف الاتجاه السائد لدى الدول الكبرى، وأمكن الوصول إلى حل وسط خفف الشروط المطلوبة لحماية أفراد المقاومة الشعبية على ما رأينا من قبل. وهكذا يشمل المحاربون أعضاء القوات المسلحة، بالإضافة إلى أفراد المقاومة الشعبية.

وتبدو أهمية هذا التحديد من زوايا عديدة أهمها أن المحاربين هم الذين لهم حق المساهمة المباشرة فى الأعمال العدائية، دون السكان المدنيين الذين ليس لهم هذا الحق، كما لا يجوز من ناحية أخرى أن يوجّه ضدهم أى عمل من أعمال القتال[١]، كما أن المقاتلين هم الذين يعتبرون أسرى حرب، ويتمتعون بحماية خاصة كفلتها اتفاقيات جنيف لهم[٢].

---

(١) Fauchille. Traite du droit International vol ٢. P. ٣٦٠.

(٢) يفترض فى الشخص الذى يشارك فى الأعمال العدائية، ويقع فى قبضة الخصم أنه أسير حرب، ومن ثم فإنه يتمتع بحماية هذا الشخص متمعاً بوصف أسير الحرب إذا ما ثار شك حول استحقاقه لهذا الوصف، وبالتالى يبقى مستفيداً من حماية الاتفاقية الثالثة حتى الوقت الذى تحسم فيه محكمة مختصة الصفة الخاصة به، راجع المادة ٤٥ من البروتوكول الأول الملحق باتفاقية جنيف =

حماية أسرى الحرب :

للمحارب أن يهاجم مقاتلي العدو وأن يجرحهم أو يقتلهم، ولكن إذا ألقوا السلاح صاروا أسرى حرب، وتحكم معاملاتهم اتفاقية جنيف الثالثة.

ومن أهم مبادئ النظام يخضعون له ما يلى:

١- يخضع أسير الحرب لسلطة الدولة الآسرة، وليس للقوات أو للأشخاص الذين اعتقلوهم كما كان الوضع فى الماضى.

٢- يجب أن يعامل الأسير وفقاً للمبادئ الإنسانية، ولا يجوز اتخاذ أية إجراءات تنال من كيانه وآدميته، ويجب على الخصوص احترام حياتهم وشرفهم ومعتقداتهم، وكفالة ممارستهم لشعائرهم الدينية، ويجب استفادة الأسرى – فى العديد من النواحى بمعاملة تفوق فى وضعها تلك التى يعامل وفقاً لها، قوات الدولة الآسرة، وذلك فيما عدا حظر الخروج من المعسكرات المعدة لهم[1].

= والخـــاص بحماية ضحايا النزاعات الدولية المسلحة والموافق عليه فى مؤتمر دولى أبرم فى جنيف فى يوليو عام ١٩٧٧م، هذا اعتبرت اتفاقية جنيف من قبيل أسرى الحرب المدنيين المرافقين للقوات المسلحة.

(١) « en dehors de libere de sortir de campe, ils beneficient, sous, bien des aspects. D'un traitement au moins aussi honarable que les forces armees de la puissancs detentrib »

وقـــد قـــررت اتفاقيات جنيف العديد من الضمانات بهذا الصدد كخطر الاعتداء على حياة الأشخاص وصحتهم وسلامتهم البدنية ولاسيما القتل والمعاملة القاسية كالتعذيب أو التشويه أو أية صورة من صور العقوبات البدنية. وكخطر انتهاك الكرامة الشخصية وبوجه خاص المعاملة المهنية والمحطة من قدر الإنسان والاغتصاب وكل ما من شأنه خدش الحياء.

٣- يجب أن يوضع الأسرى فى أماكن بعيدة عن ميادين القتال، وأن يقدم لهم كل ما يلزمهم من مأكل أو مشرب أو ملبس.

٤- ألزمت الاتفاقية الدولة الآسرة بأن تصرف مرتبات للأسرى تساوي تلك التي تصرفها لمن هم فى رتبتهم من رعاياها العسكريين.

٥- يجب العناية بالجرحى والمرضى من الأسرى، وعلى قوات الدولة التى تسيطر على المعركة أن تبحث عنهم وأن تحميهم من الاعتداء، كما ألزمت اتفاقية جنيف الدولة التى تتخلى عن الجرحى فى ميدان القتال أن تترك معهم المعدات الطبية؛ بل والأطباء بقدر يكفل معالجتهم، وحتى لا يكونوا عبئاً على الدولة الآسرة. وتتمتع المستشفيات ووحدات الإسعاف وأفراد الخدمات الطبية بحماية خاصة نظمتها الاتفاقية.

٦- وضعت اتفاقية جنيف ضمانات خاصة لتنفيذ أحكامها تتمثل فى تقرير حقوق الدولة الحامية من ناحية، وفى الحقوق المقررة لـ[illegible] جمعية الصليب الأحمر زيارة أسرى الحرب واتخاذ ما يلزم للمساعدة والرقابة، والقيام بالمساعى الحميدة كلما وجدت ذلك مرغوباً فيه لمصلحة الأسرى، كما أن لها أن تنظم لقاءات بين ممثلى الدول المعنية على أراض محايدة[١].

ولقد ضرب الإسلام أروع الأمثلة فى حماية الأسرى والرحمة بهم والعناية بشأنهم، ففى توفير الطعام والشراب لهم يفيد الإسلام أن

---

(١) راجع تفصيلات واسعة عن هذا الموضوع فى رسالة الدكتوراه عبد الواحد الفار، عن أسرى الحرب، القاهرة عام ١٩٧٥ ص ٦٠ وما بعدها، ودراسة محيى الدين عشماوى ، "حقوق وواجبات أسرى الحرب"، القاهرة ١٩٧٥م، ص١٦ وما بعدها.

ذلك من أفضل الطاعات وأجل الأعمال التى يتقرب بها المسلم إلى ربه، وقد بيّن القرآن أن من أجلّ الطاعات إطعام الأسير فقال -سبحانه -: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨].

ويطـبق المسـلمون هذا البيان القرآنى فى صورة إيمانية فريدة يحكـيها واحد من أسرى بدر وهو أبو عزيز بن عمير فيقول: "مر بى أخـى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار بأسرى فقال: شد يديك به فإن أمه ذات متاع، قال: ومكثت فى رهط من الأنصار حيث أقبلوا بى من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بنا ما يقع فى يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحنى بها، قال: فأستحيى فأردها على أحدهم؛ فيردها على ما يمسها[١].

وفـى احترام شرف الأسير وكرامته وخاصة النساء منهم جاء عـن الرسول ﷺ أنه قال يوم حنين: "لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره- يعنى إتيان الحبالى- ولا يحل لامرئ يؤمـن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبى حتى يستبرئها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يقسم"[٢].

وفـى حـق الأسرى فى الاتصال بذويهم وأقاربهم، وحقهم فى المحافظة على الوحدة الأسرية، وعدم التفريق بين الوالدة وولدها، يجمع أهـل العلم على أن هذا التفريق غير جائز ويستدلوا على ذلك بما روى

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، منشورات مكتبة المعارف، (٣/٣٠٦-٣٠٧) ، كتاب المغازى للواقدى تحقيق د. مارسون جونس، عالم الكتب، ط الثالثة ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤م ص٢٤٠ .

(٢) سنن أبو داود ، كتاب النكاح حديث رقم ١٨٤٤، سنن الدرامى، كتاب السير حديث رقم ٣٢٦٦ .

عــن عــبد الرحمن الحُبُلى قال: كنا فى البحر وعلينا عبد الله بن قيس الفــزارى ومعــنا أبو أيوب الأنصارى، فمر بصاحب المقاسم وقد أقام الســبى، فــإذا امــرأة تبكى فقال ما شأن هذه ؟ قالوا فرقوا بينها وبين ولدهــا؛ قــال: فــأخذ بيد ولدها حتى وضعه فى يدها فانطلق صاحب المقاســم إلــى عبد الله بن قيس فأخبره، فأرسل إلى أبى أيوب؛ فقال ما حملك على ما صنعت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين الأحبة يوم القيامة"[1].

جرحى ومرضى الحرب :

هــم الأشــخاص العســكريون أو المدنيون الذين يحتاجون إلى مساعدة أو رعاية طبية بسبب الصدمة أو المرض أو أى اضطراب أو عجــز بدنــياً كان أم عقلياً، مما يجعلهم يحجمون عن ارتكاب أى عمل عدائى.

وقــد اهتمت اتفاقيات جنيف بهم وأفردت لهم العديد من الأحكام الــتى تقــوم فى جملتها على ضرورة معاملتهم معاملة إنسانية ، بحيث يلقــون بقــدر الإمكان الرعاية الطبيعة التى تتطلبها حالتهم بأسرع ما يمكن، كما حظرت الاتفاقية التمييز بينهم لأى اعتبار سوى الاعتبارات الطبية.

---

(١) تحفــة الأحــوذى بشــرح جامع الترمذى، كتاب السير، باب فى كراهة التفريق بين السبى، (١٥٤/٥)، حديث رقم ١٦١٣ . وفى معاملة الأسرى بصفة عامة راجع د. وهبة الزحــيلى، آثــار الحرب فى الفقه الإسلام ص ٤٠٤ ، الشيخ محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية فى الإسلام، ص ١١٤ ، د.عبد اللطيف عامر، أحكام الأسرى والسبايا فى الحروب الإسلامية ، ص ١٤٧ .

ومـــن أخـــرى يحظر تعريض هؤلاء الجرحى والمرضى لأى إجراء طبى لا تقتضيه الحالة الصحية لهم، ولا يتفق مع المعايير الطبية المرعية التى قد يطبقها الطرف الذى يقعون فى قبضته على رعاياه فى الظروف الطبية المماثلة.

كمـــا حظـــرت اتفاقــية جنيف، بشكل خاص، أن يجرى لهؤلاء الأشخاص ولو بموافقتهم أى عمل من الأعمال الآتية :

(أ) عمليات البتر.

(ب) التجارب الطبية أو العملية.

(جــــ) استئصـــال الأنسجة أو الأعضاء بغية استزراعها إلا إذا اقتضت ذلك الضرورات الطبية.

حماية الوحدات الطبية :

أقـــرت اتفاقيات جنيف وملحقاتها ضرورة عدم انتهاك الوحدات الطبية، وأوجبت على الأطراف المتحاربة حمايتها، وعدم تعرضها لأى هجوم من جانبهم. وأوجبت على أطراف القتال إخطار بعضهم البعض بمواقـــع الوحدات الطبية لكل منهم، وعدم اتخاذها ستاراً لستر الأهداف العسكرية لهم، كما أوجبت أن تكون الوحدات الطبية فى مواقع لا يهدد الهجوم على الأهداف العسكرية سلامتها.

حماية أفراد الخدمات الطبية والدينية :

يجب احترام أفراد الخدمات الطبية المدنيين وحمايتهم، ولا يجوز توقيع العقاب على أى شخص لقيامه بنشاط ذى صفة طبية بغض النظر عن شخص المستفيد من هذا النشاط.

وقـد حظر بروتوكول جنيف إرغام الأشخاص الذين يمارسون نشاطاً ذا صفة طبية على إتيان تصرفات أو القيام بأعمال تتنافى وشرف المهـن الطبـية، أو غير ذلك من القواعد الطبية التى تستهدف صالح الجـرحى والمرضـى أو أحكام الاتفاقيات الدولية أو على الإحجام عن إتيان التصرفات والقيام بالأعمال التى تتطلبها هذه القواعد والأحكام.

المركبات الطبية :

تتمـتع المركبات الطبية بالاحترام والحماية الواجبة، ويدخل فى ذلـك زوارق الـنجاة والسفن الطبية والطائرات الطبية، وكذلك طاقهما والعامليـن عليها، وتستمر الطائرات الطبية التابعة لأحد أطراف النزاع متمـتعة بالحمايـة أثـناء تحليقها فوق المناطق البرية أو البحرية التى يسيطر عليها الخصم فعلياً، بشرط الحصول على موافقة مسبقة على هذا التحليق من السلطة المختصة لدى ذلك الخصم.

ويجب ألا يساء استخدام هذه الطائرات كاستخدامها فى جمع أو نقـل معلومات ذات صفة عسكرية مثلاً، ويجب على الطائرة أن تبذل قصارى جهدها للكشف عن هويتها وإخطار الخصم بظروف تحليقها.

أمـا عـن حمايـة الجـرحى والمرضى والغرقى فى الشريعة الإسـلامية فقد قدمت الشريعة الإسلامية لهذه الفئات حماية بالغة سواء كـانوا من جيش المسلمين أم من جيش العدو، أما الجرحى والمرضى والغـرقى من المسلمين فلا خوف فى حمايتهم والإبقاء عليهم وتضميد جـراحاتهم، وعدم الإجهاز عليهم، وتشير إلى ذلك أحاديث كثيرة منها: مـا روتـه أم عطية الأنصارية قالت: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع

غزوات أخلفهم فى رحالهم، وأضع لهم الطعام، وأداوى الجرحى، وأقوم على الزّمنى[1]. وما رواه أنس قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة معها من الأنصار يسقين الماء ويداوين الجرحى[2].

وأمـــا الجـــرحى والمرضى والغرقى من أفراد العدو : فإنه لا يجـــوز إبادتهم أو الإجهاز عليهم أيضاً أو إساءة معاملتهم، لأن خطرهم قد زال بسبب جرحهم أو مرضهم أو غرقهم، والإساءة إليهم أو الإجهاز علـــيهم فـــى هـــذه الحالة يعد اعتداءً ﴿والله لا يحب المعتدين﴾ كما أن الحـــرب تعـــد ضـــرورة، والضرورة تقدر بقدرها، فإذا ما زال خطر هؤلاء، ولم يعد فى مكنتهم الاعتداء على المسلمين، فإن ضرورة قتالهم تـــزول، وهـــذا ما يتفق والمبادئ الإسلامية، حيث إن قتلهم أو الإجهاز علـــيهم لا يحقـــق أية ميزة عسكرية للمسلمين، بل يعد نوعاً من الفساد الذى نهى عنه المولى سبحانه ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ .

وإذا وجبت حماية الجرحى والمرضى والغرقى فى الشريعة الإسلامية، فإن كل ما يلزم لغوثهم وتضميد جراحاتهم وحمايتهم تكون حماية واجبة أيضاً مثل حماية أشخاص الوحدات الصحية والهيئات الدينية، وكل من يقوم بالمهام الطبية، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

المفقودون والمتوفون :

اســـتحدث بـــروتوكول جنيف المبرم فى يوليو ١٩٧٧م أحكاماً تـــتعلق بالمفقودين والمتوفين، ووضع مبدأ عاماً بهذا الصدد، هو أن من حـــق كل أسرة معرفة مصير أفرادها. ويجب على كل طرف أن يبحث

(١) نيل الأوطار جـ٧، ص ٢٣٩ .

(٢) نيل الأوطار جـ٧، ص ٢٣٩ .

عن المفقودين الذين يبلغ الخصم عن فقدهم، طالما تسمح الظروف بذلك فى موعد أقصاه انتهاء الأعمال العدائية.

أمـــا بالنســبة للمتوفيـــن، فيجب عدم انتهاك رفاتهم، كما يجب الحفـــاظ على مدافنهم وتسهيل وصول أسر المتوفين إليه، وكذلك ممثلى الدوائـــر الرســمية لتسهيل الوصول إلى هذه المدافن، كما يجب كذلك تســـهيل عودة رفات الموتى وأمتعتهم الشخصية إلى وطنهم إذا ما طلب ذلك دولته، أو طلبه أقرب الأشخاص إلى المتوفى ولم تعترض الدولة.

وفـــى الشريعة الإسلامية : فإن لجثة القتيل أو المتوفى حرمتها وإن كان صاحبها من الأعداء، حيث يّحّرم الإسلام التمثيل بالجثة سواء بقطع الأنف أو الأذن أو بعض الأطراف، أو قطع الرأس وإرسالها إلى هـــنا أو هناك لبعض الأغراض، أو بتشويه الجثة وإهانتها بأية طريقة كانت.

وتتضـــافر الأدلة فى تحريم ذلك، ومنها ما روى أن رسول الله ﷺ كـــان إذا بعث أميراً على جيش أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ومـــن معـــه من المسلمين خيراً فقال: "اغزوا باسم الله وفى سبيل الله، قـــاتلوا مـــن كفر، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا ولـــيداً"[(١)].ومـــا روى عنه أيضاً أنه كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة[(٢)]، وعن عمران بن حصين قال: ما قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً

---

(١) صـــحيح مسلم بشرح النووى، الجهاد والسير باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته اياهم مجلد ٤ جـــ١٢ ص٣١ .

(٢) صـــحيح مســـلم بشـــرح الـــنووى، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص، باب حكم المحاربين والمرتدين مجلد ٤، جـــ١١ ، ص ١٥٣ .

إلا أمـــرنا بالصـــدقة، ونهانا عن المثلة قال: ألا وإن من المثلة أن ينذر الرجل أن يخرم أنفه"(١).

ولعلـــه من الواضح أن هذه الأحاديث تتضمن النهى عن المثلة بقتلى المشركين، والأصل فى النهى أن يكون للتحريم ما لم يصرفه عنه صـــارف، ولا يوجد هنا هذا الصارف فيبقى على أصله مفيداً للتحريم. وممـــا يؤكـــد ذلك ما فعلته هند بنت عتبة بشهيد الإسلام حمزة بن عبد المطلـــب يوم أحد، حين بقرت بطنه ولاكت كبده، ويعلم الرسول بذلك فـــيقول: لأن أظهـــرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثيـــن رجـــلاً منهم – وفى رواية بسبعين رجلاً منهم– ولكن يصحح المولـــى – ســـبحانه وتعـــالى – لرسوله الموقف في الحال ويعيده إلى الصـــواب ويقرر كرامة النفس الإنسانية، وينزل الوحى على رسول الله بقوله – سبحانه–: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٦-١٢٧].

وأما بالنسبة للمفقودين فلا يوجد فى الإسلام ما يمنع من البحث عـــنهم، ودفنهم ومواراتهم، خاصة وقد كان رسول الله ﷺ يسأل بنفسه عـــن المفقوديـــن، ويـــتفقد أحوالهـــم وإذا ما قام العدو بإخطار الدولة الإســـلامية بإخطار الدول الأخرى المعادية بنفس الأخبار أو المعلومات عن المفقودين من رعاياهم، وذلك على أساس مبدأ المعاملة بالمثل.

---

(١) سنن داود، كتاب الجهاد، حديث رقم ٢٢٩٣ .

وأخيراً لا يجوز للجيش المسلم أن يفسد في الأرض بالتخريب أو قطـــع الأشجار أو عقير الحيوان، عملاً بقوله – تعالى – : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، ولأنه حيوان ذو روح فلم يجز قتله.

حماية المدنيين فى الأراضي المحتلة [١]:

من أهم القيود التى ترد على سلطات الدولة المحتلة تلك القيود التى تتصل باحترام حقوق المدنيين فى الأراضى المحتلة. وقد اهتمت اتفاقية جنيف الرابعة بهذه المسألة ونظمتها بشكل مفصل.

وقـد عرفـت الاتفاقـية الأشخاص المقصودين بالحماية بأنهم "الأشخاص الذين يجدون أنفسهم فى لحظة ما وفى أى ظرف كيفما كان، عـند قـيام حرب أو احتلال فى أيدى أحد الأطراف المتحاربة أو دول احتلال ليسوا من مواطنيها" (المادة الرابعة).

أما الحقوق التى قررتها الاتفاقية فهى تتفق فى جملتها مع قواعد الحد الأدنى للحقوق التى تقررها قواعد القانون الدولى لكل الأشخاص، فهـى تقـرر الحقـوق العامة مثل حق الحياة وسلامة الجسم والعرض والشـرف مـن التعذيب أو الأذى، والحقوق العائلية مثل حق الزواج، وتكويـن الأسـرة، حرية العقيدة، واحترام ذاتية المواطنين بمنع التأثير علـى عـاداتهم أو تقاليدهم. ونصت الاتفاقية أيضاً على بعض الحقوق

---

(١) زكـريا عـزمى : من نظرية الحرب إلى نظرية النزاع المسلح مع دراسة خاصة بحماية المدنيين فى النزاع المسلح، رسالة جامعة القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٢٣٦ وما بعدها.

الاجتماعــية والاقتصـــادية كالحق فى التعليم، وحق العمل الحر، وحق الملكية.

ولعل من أهم الحقوق التى قررتها هذه الاتفاقية حق الأفراد فى الـــبقاء فى أراضيهم وعدم جواز نقلهم، والحقوق القضائية التى تتصل بعـــدم جـــواز سريان ما تصدره السلطة المحتلة من قوانين جنائية على السكان بأثر رجعى، وتقييد حقها فى اعتقال المدنيين، ووضع قيود على توقـــيع عقوبة الإعدام، ووضع ضوابط لحماية المعتقلين فى الأراضى المحـــتلة، وضـــرورة توفـــير مختلف الضمانات القانونية فى التحقيق والمحاكمة[1].

وقد أدخلت ضمانات إضافية فى ملحق جنيف (١٩٧٧) عالجت العديد من أوجه القصور التى انتابت الاتفاقية الرابعة مثل:

١- تقريـــر سريان الاتفاقية الرابعة على اللاجئين والأشخاص غير المنتمين لأية دولة.

٢- تيسير جمع شمل الأسر التى تشتت نتيجة للنزاع المسلح.

٣- تقرير حماية واسعة للنساء والأطفال.

٤- توسيع الضمانات القضائية فى التحقيق والمحاكمة مع المدنيين.

ومـــع ذلـــك فـــإن هذا الملحق لم يكفل الحقوق السياسية للسكان المدنييـــن، كما أعطى لسلطات الاحتلال حق تقييد بعض حقوق الإنسان الأساسية مثل حق إجبارهم على العمل لتوفير احتياجات جيش الاحتلال،

---

(١) راجـــع شـــرحاً وافياً في المراجع الآتية، زكريا عزمى من نظرية الحرب إلى نظية الـــنزاع المســـلح، المرجع السابق ص ٢٢٠ محيى الدين عشماوى، حقوق المدنيين تحت الاحتلال الحربى، المرجع السابق، ص ٣١٧ وما بعدها.

وحق نقل الموظفين العموميين من مراكزهم، وحق المحاكمة أمام محكمة عسكرية سرية، وإن أوجب النطق العلنى بالحكم، فضلاً عن القيود العديدة على الملكية العامة والخاصة التى أعطتها الاتفاقية لسلطات الاحتلال.

حماية المدنيين فى الشريعة الإسلامية :

والمدنيون الذين لا صلة لهم بالأعمال القتالية، يبالغ الإسلام فى الاهتمام بهم كالفلاحين فى المزارع والعمال فى المصانع، والأطباء والمرضى فى المستشفيات. والطلاب والمعلمون فى المدارس، ومن لا ناقة له بالقتال ولا يقدر عليه كالأطفال والشيوخ والنساء وغير ذلك.

والمتأمل فى الفقه الإسلامى يجد أن الفقهاء قد اتفقوا على مبدأ عام فى حماية هؤلاء المدنيين وهو عدم قتل من لا يقاتل، هذا بالإضافة إلى الحماية الخاصة التى قدمتها الشريعة الإسلامية لبعض طوائف المدنيين كالأطفال والنساء وغير ذلك. ونبين ذلك فيما يلى:

أولاً : المبدأ العام فى حماية المدنيين :

لقد ركزت الشريعة الإسلامية على المبدأ العام فى حماية المدنيين وهو عدم قتل من لا يقاتل، وحيث إن المدنيين لا يشاركون فى أعمال القتال لعجز أو شغل كالشيوخ المسنين والنساء والأطفال، والمتفرغين للعبادة والفلاحين والتجار والصناع، فإنه لا يجب توجيه الأعمال العسكرية إليهم. وقد تضافرت على ذلك الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومن ذلك قوله – تعالى –: ﴿ولا تعتدوا﴾ : فلقد بين المولى – سبحانه وتعالى – الطوائف التى توجه إليهم أعمال القتال والتى لا توجه إليهم بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٢].

وحول هذه الآية يرى ابن كثير أن معناها: قاتلوا فى سبيل الله ولا تعتدوا بارتكاب المناهى كما قاله الحسن البصرى: من المثلة والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان بغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم(١).

كما يقول البعض فى تفسير قوله: ﴿ولا تعتدوا﴾ : والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين المسالمين الذين لا يشكلون خطراً على الدعوة الإسلامية وعلى الجماعة المسلمة كالنساء والأطفال والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين(٢).

---

(١) تفسير القرآن الكريم: ابن كثير، (٢٢٦/١)، وأيضاً مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، الرازى (١٣٦/٣)، وأيضاً الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبى ، المجلد الأول (٣٤٨/٢).

(٢) فى ظلال القرآن: سيد قطب، (١٨٨/١) .

من السنة النبوية :

أما السنة النبوية فقد أكدت على عدم قتل المدنيين الذين لا يشتركون فى أعمـــال القـــتال لأن الإسلام لا يوجب القتال على المسلمين إلا ضد من قـــاتلهم أو وقـــف فـــى وجه دعوتهم، ولذا فهو لا يتجه إلى المدينة فى الحروب فيبيدها أو الحضارة التى تعب الإنسان فى بنائها أزماناً طويلة فـــيزيلها، ومن الأدلة على عدم قتل من لا يقاتل من السنة ما يلى:- ما روى أن امرأة وجدت فى بعض مغازى النبى ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان(١).

- ما روى أن امرأة وجدت فى بعض مغازى النبى ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان(٢).

- مـــا روى أن رســـول الله ﷺ خرج فى غزوة غزاها وعلى مقدمـــة الجيش خالد بن الوليد فمر رباح وأصحاب رسول الله ﷺ على امـــرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا ينظرون إليها ويتعجبون منها حـــتى لحقهـــم رسول الله ﷺ على راحلته فانفرجوا عنها فوقف عليها رســـول الله ﷺ فقال: "ما كانت هذه لتقاتل فقال له: لا تقتلون ذرية ولا عسيفا"(٣).

- مـــا روى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا

(١) صحيح مسلم، الجهاد والسير حديث رقم ٣٢٧٩ .

(٢) مسند أحمد، مسند المكيين، حديث رقم ١٥٤٢٣ .

(٣)نفس المرجع حديث رقم ١٥٤٣٢ .

يراً ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين"[1].

– ما روى أن رسول الله ﷺ بعث سرية يوم حنين فقاتلوا المشركين، فأفضى بهم القتل إلى الذرية، فلما جاءوا قال رسول الله ﷺ: "ما حملكم على قتل الذرية" قالوا يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين، قال "وهل خياركم إلا أولاد المشركين، والذى نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها"[2].

ومن الواضح أن كل هذه الأحاديث تحرم بصفة عامة قتل من لا يقاتل من المدنيين.

ثانياً : الحماية الخاصة لبعض طوائف المدنيين :

وإلى جانب المبدأ العام الذى يؤكد حماية المدنيين بصفة عامة، لأنهم لا يقاتلون ولا يشتركون فى أعمال القتال، فقد قرر الإسلام وركز على حماية بعض الفئات الخاصة التى من شأنها ألا تقاتل، ونبين هذه الفئات فيما يلى :

(١) رجال الدين :

مادام رجال الدين لا يحاربون، ويفرغون أنفسهم للعبادة فلا يجوز توجيه أعمال القتال إليهم، وقد ورد النص على ذلك صراحة فى وصية أبى بكر ليزيد بن بن معاوية (ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم فى الصوامع للعبادة، فدعهم وما زعموا). وهكذا يبعد الإسلام

(١) سنن أبى داود، الجهاد حديث رقم ٢٢٤٧ .

(٢) مسند أحمد، سند المكيين، حديث رقم ١٥٠٣٦ .

المعـــابد والرهبان عن موضع السيوف، أو أبعدها عنهم إذا شئنا الدقة. وهكذا يجب أن تكون هذه القاعدة محترمة فى كافة الأوقات(١).

مـــع ذلك تشير وصية أبي بكر إلى فئة أخرى من رجال الدين البيزنطيـــن هـــم هؤلاء الذين قد فحصوا أوساط رؤوسهم من الشعر، وتركوا منها أمثال العصائب، فهذه الفئة تشترك فى القتال بالفعل، ولقد كانوا يدعون إلى القتال بقسوة وشراسة ضد المسلمين. ولا يوافقون أبداً على وقف القتال.

ولا شك أن لهذا الحكم أهميته البالغة، ذلك أنه يتمشى مع مبادئ الإســـلام الحنيف فى تجربة حرية العقيدة تحقيقاً لقوله – تعالى –: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فالإسلام فد أمر بحمايـــة هـــذه الفئة التى من المفروض أنها تعمل على خلاف مصلحة المســـلمين، وتبشـــر بدين آخر، وهذا ما يؤكد حرية الدين، بل إن من الأســـباب التى تجيز للمسلمين أن يقاتلوا من أجلها تحقيق حرية العقيدة وحرمة أماكن العبادة، لقوله – تعالى –: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

---

(١) يجب تفسير هذا الحكم على ضوء القاعدة العامة، وهى عدم جواز قتل من لا يقاتل، لذا قام رجال الدين بالاشتراك فى القتال أو التحريض عليه – كما كان يفعل بعض رجال ـــالديـــن الـــرومان فى أثناء حروب المسلمين بالشام – فإنهم يقاتلون لأنهم يعتبرون من المقاتلين فى هذه الحالة.

Mohamed Abu Zahra, Concept of war in Islam. Studies of Islam Series, No ٢ ١٩١٦ P.٤٥ .

وواضح من الآية الكريمة أنه لا فارق بين المساجد وغيرها من أماكــن العبادة من ناحية الحرمة[١]، وتؤكد السنة القولية هذا الحكم، فقد روى عن الرسول ﷺ أنه قال: "لا تقتلوا أهل الأديرة"[٢].

(٢) النساء :

لهذه الفئة كذلك حصانة خاصة من القتل بحكم أنها لا تقاتل، وقد أكــدت السنة العملية ذلك، لقد غضب الرسول ﷺ غضباً شديداً عندما شــاهد جثة امرأة فى إحدى الغزوات، وأرسل إلى خالد بن الوليد الذى كان فى مقدمة الجيش ينهاه عن ذلك وقال ﷺ: "ما كانت هذه لتقاتل" مع ذلك إذا استأسدت المرأة وامتشقت الحسام والبندقية جاز قتلها[٣].

وحكمــة ذلــك أنه يفترض فى المرأة الرقة، وعدم القدرة على القــتال المعــروف فى ذلك الزمان، لذا لا تحارب بحسب الأصل، وإذا خالفــت المــرأة هــذه القــاعدة، فقد انتفت حكمة عدم قتلها، ولعل هذا الاســتدراك يتوقع الزمن الحاضر، وإمكان المرأة أن تمارس فيه ألواناً من الحروب، لذا لا يجوز تركها تقاتل دون أن تقتل.

(٣) الأطفال والعجزة :

هــم أيضاً لا يقاتلون لضعف بنيتهم وعدم قدرتهم على الحرب، والمقصود بالأطفال الصغار الذين لم يبلغوا سن البلوغ الشرعى، والذى

---

(١) صبحى محمصانى: القانون والعلاقات الدولية فى الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٢ ص ٢٤٠ .

(٢) السرخسي المبسوط، القاهرة ١٣٢٤ هـــ ،(١٠/٦٩) .

(٣) نيل الأوطار للشوكانى، شرح منتقى الأخيار، (١٢٥٥هــ) المطبعة العثمانية بمصر.

حددته معظم المذاهب بتمام البلوغ الطبيعى أو بتمام الخامسة عشر من العمر[1]. وقد ثبت النهى عن قتل هذه الفئة من أقوال الرسول ﷺ الذى قـال: "مـا بـال أقوام تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية وكررها ثلاثاً".

ويلحق بالأطفال الكبار العجزة، والمجانين والمعتوهون والعمى والمقعدون ومقطوعو اليد اليمنى، ومقطعو اليد والرجل من خلاف[2].

وقـد اشـترط الفقهاء فيمن يصلح كجندى مقاتل الصحة والقوة وعـدم العاهـة الجسدية، ، وقد استندوا فى ذلك إلى العديد من الآيات. منها قوله – تعالى -: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة:٩١]. وبمفهوم المخالفة استثنوا هذه الفئات من المحاربين.

(٤) التجار والزراع :

هـناك اتجاه قوى فى الفقه الإسلامى بوجوب عدم مقاتلة التجار والـزراع، ويلحـق بهم الصناع وأصحاب المهن الأخرى، وذلك بحكم أنهـم غـير محاربين ويبدو أن أقلية من الفقه هى التى تتجه إلى ذلك

---

(١) صـبحى محمصانى: النظرية العامة للموجبات والعقود فى الشرع الإسلامى، بيروت الطـبعة الثانية ١٩٧٢م (٨٨/٢). ويروى عن ابن عمر قوله أنه: عرض على رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة، فلم يجزنى.

(٢) يقول الله – تعالى -: "لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ" [الفتح:١٧].

(الأوزاعـــى، أحمـــد بن حنبل) لأن الغالبية رأت الأخذ بحرفية الوصايا الصادرة عن الرسول وعن الخلفاء وهى لا تشير إلى هؤلاء.

ونحـــن نـــرى قصـــر القتال على من يقاتل وفقاً للقاعدة العامة فهـــؤلاء إذا مـــا جنوا دخلوا فى فئة المحاربين، ولكن طالما بقوا بدون تجنيد، فهم غير مقاتلين ولا يحل قتلهم.

ويدعـــم هـــذا الـــرأى مـــن كتب من الفقهاء المحدثين فى هذا الموضوع، فالشيخ محمد أبو زهرة يقول: إن النبى ﷺ قد نهى عن قتل الضـــعفاء وهم العمال الين يستأجرون للعمل: لا يحاربون، ولا يقومون بعمل فيه تقوية للجيش[1].

الحالات التى تسقط فيها الحصانة عن غير المقاتلين :

ذكرنا أن الحصانة تسقط عن هذه الفئات إذا ما شاركوا فى قتال، ولكنْ هل تسقط فى حالات أخرى ؟

يبحـــث الفقهاء فى هذا الصدد ما إذا تحرش الأعداء بالنساء أو الأطفـــال أو بطوائـــف ممـــا ذكـــرت حين الزحف والتحام القتال، أو حاصـــرهم فـــى حصن، فهل يجوز القتال على الرغم من تأكد إصابة هؤلاء؟

(١) يراجع كتابه العلاقات الدولية فى الإسلام ص ٢٩٦ .

العملــيات العسكرية، كذلك أوجب الملحق على كافة الأطراف أن يبذلوا الــرعاية الكافــية فى إدارة العمليات العسكرية من أجل تفادى أهداف عســكرية داخل المناطق المكتظة بالسكان أو بالقرب منها، كذلك يجب اتخاذ الاحتياطات لحماية المدنيين(١).

وهكذا تسير الوثيقة التى أبرمت عام ١٩٧٧م مع الآراء المتشددة فـــى الفقه الإسلامى التى قلت منذ أكثر من عشرة قرون. وهى أقل فى مـــراعاتها للإنســـانية عـــن آراء مذاهب أخرى فى الفقه الإسلامى كما رأينا.

---

(١) راجـــع للمؤلـــف، قواعـــد العلاقات الدولية فى القانون الدولى والشريعة الإسلامية، المرجع السابق ص ٧٣٤ .

مظاهر التسامح الإسلامي
في العلاقة بين المسلمين وغيرهم

أ.د/ محمد بدر معبدي(*)

أولاً : الإسلام دين التسامح

إذا أمعنا الفكر والتأمل واستعدنا قراءة التاريخ نجد أن الإسلام كان السابق الأكبر إلى بث التسامح، وحرص أول ما حرص على الأخوة الإنسانية بين البشر؛ وربما إلى الوحدة الإنسانية مهما اختلفت الألوان وتباينت اللهجات، ولقد قرر الإسلام هذه الحقيقة فى أول نداء إنساني من نوعه قبل أن تعرف ذلك المنظمات التى تنادى بحقوق الإنسان، وقبل أن تعلنها المنظمات العالمية والهيئات الدولية، يقول الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣]، وفى العصور المختلفة عمل المسلمون على تدعيم الوحدة الإنسانية، ونشروا التسامح بين المسلمين وغيرهم، وقد رأينا رسولنا العظيم محمداً ﷺ استأجر عبد الله بن أريقط وهو مشرك ليكون دليلاً له فى الهجرة، ولا يلزم من كونه كافراً ألا يوثق به فى شئ أصلاً ، لأن الرسول ﷺ وجد من الحكمة الاستعانة بمثل هذا الرجل ما دام أميناً ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

(*) العميد السابق لكلية الدراسات الإسلامية والعربية – فرع البنات جامعة الأزهر بأسوان.

ثانيا : الاستعانة بغير المسلمين في أعمال الدولة الإسلامية

ومما هو معلوم أن العلماء قد أجازوا لإمام المسلمين أن يستعين بغير المسلمين وبخاصة أهل الكتـــاب فى بعض الشئون السياسية والحربية، ما داموا أهل ثقة وأهل عهد لا يقاتلوننا، ولا يقفون حجر عثرة فى طريق الدعوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة:٨-٩]. والإسلام وهو دين التسامح حرص على رعاية العلماء والحكماء من أهل الملل المختلفة، وقد بلغ بعض النابغين من غير المسلمين الحظوة عند خلفاء المسلمين وعامتهم، يقول الفيلسوف (داربر) أحد المؤرخين الأمريكان " إن المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى واليهود وغيرهم على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ورقوهم إلى المناصب المختلفة فى الدولة حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة من يثق فيه من المسيحيين وهو (حنا مسنيه)، وقال فى موضع آخر: كانت إدارة المدارس مفوضة إلى المسيحيين تارة وإلى اليهود تارة أخرى، ولم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم ولا إلى الملة التى يتبعها أو الدين الذي يدين به؛ بل لم يكن الإسلام ينظر إلا إلى مكانة العالم من العلم والمعرفة، قال الخليفة العباسي المأمون: الحكماء هم صفوة الله من خلقه، ونخبته من عباده لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة، وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة، هم ضياء

العالم، وهم واضعوا قوانينه، ولولاهم لسقط العالم فى الجهل والبربرية، وقال فى موضع آخر: إن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبى أولادهم من النصارى[1]،ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين.

ثالثا : **أمثلة لإثراء غير المسلمين للحضارة الإسلامية**

ونذكر بعض العلماء والحكماء غير المسلمين الذى كانت لهم الحظوة فى الدولة الإسلامية :

١- جيورجيس بن بختيشوع: طبيب المنصور ، كان فيلسوفاً كبيراً علت منزلته عند المنصور، فأعلى مكانته حتى على وزرائه، ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة وخرج ماشياً يسأل عن حاله، وحينما طلب من الخليفة أن يعود إلى بلده ليدفن فيه مع آبائه وأجداده، أمر بتجهيزه ومنحه عشرة آلاف دينار، وأوصى من معه بحمله إذا مات فى الطريق إلى مدافن آبائه كما طلب.

٢- نوبحت المنجم وولده أبو سهل: وهما من أصل فارسى ويتبعان مذهب الفرس، حظيا بمكانة عالية عند المنصور، ثم كانت لأبى سهل ذرية مسلمة، وكانوا جميعاً منجمين، ولهم شهرة عظيمة فى علوم الكواكب. تيوفيل بن توما النصرانى : كان على مذهب الموارنة من سكان لبنان، وحظى بمكانة عالية عند الخليفة المهدى، وقد كان منجماً وله كتب فى التاريخ جليلة، ونقل كتاب أميروس إلى السريانية.

---

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده.

٣- بختيشوع الطبيب وجبريل ولده يوحنا ابن ماسويه النصراني ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة، طبية وغيرها، وخدم الرشيد من بعده إلى المتوكل، ارتفع شأنهم عند الخليفة هارون الرشيد.

٤- يوحنا البطريق : مولى المأمون علا قدره فى زمنه، أمناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة.

٥- سهل بن سابور وسابور ابنه وكانا نصرانيين، تولى ساوبر بن سهل بيمارستان جند نيسابور.

٦- حنين بت إسحاق النصراني: اشتهر أيام المتوكل، وكان من أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره، وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة فى زمن المأمون.

٧- متى بن يونس المنطقى النصراني : كان متفنناً فى جميع العلوم العقلية، أخذ عنه أبو نصر الفارابى وانتهت إليه الرئاسة فى بغداد(١).

ومن هنا يتضح للجميع مدى اهتمام الدين الإسلامي الحنيف بالعلماء والحكماء، وسعة صدره للغريب والقريب على السواء دون تمييز ولا تفريق فالكل يوزن بميزان واحد، وهو ميزان العلم والحكمة.

رابعا : من التسامح : الرسول داعيا فحسب

كان من سماحة الإسلام أن أرسل الله نبيه محمداً ﷺ يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل بالتى أحسن لا يجبر أحداً

---

(١) الإسلام والنصرانية (المرجع السابق).

على قبوله دعوته، ولا يكره الناس على الدخول فى الإسلام مكتفياً بالحجة والإقناع، معلناً أنه لا سيطرة له على الضمائر، ولا سلطان له على القلوب، وظيفته الهداية والدعوة إلى الله بالحكمة والعقل ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]. يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحذر عاقبة الظلم والطغيان، وليس من وظيفته ولا اختصاصه إحلال الهداية فى قلوب الضالين، وإيصال اليقين إلى نفوس الحيارى التائهين إنما ذلك لله وحده ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

خامسا : الإسلام انتشر بقوته الذاتية وليس بالسيف

وقد جاء صلوات الله وسلامة عليه بالشريعة السمحة الواضحة والملة القويمة والحنيفية المتسامحة مع كل الملل، جاء بدين الفطرة الذى تهفو إليه الألباب، وتطمئن له القلوب لأن فيه رشدها من الغى وهدايتها من الضلال وشفاءها من العمى، فهى ميالة إليه بطبيعتها محبة له بفطرتها، متى خلت من الموانع والعوائق لا تروم به بديلاً، ولا تختار سواه ديناً، وإن ديناً كهذا شأنه من التسامح والإنسانية ليس محتاجاً إلى القوة تسنده، ولا إلى السيف يعزز مركزه، ويشيعه فى القلوب، فهو بقوانينه العادلة ونظمه السمحة وتعاليمه المحببة إلى النفوس الكافلة لسعادة البشر فى معاشهم ومعادهم، غنى عن مظاهرة الحديد والنار، فهو دين لم يقم صرح جده، ولم يمتد وارف ظله، ولم يحتل مكانه الأول فى نفوس الخاصة والعامة تحت تأثير شئ ما غير الحجة والبرهان وغير ما جاء به من السماحة واليسر، ومن المبادئ العالية التى عليها وحدها – وإن كابر المبطلون – يقوم نظام الحضارة والعمران، وغيرهما عن أبى هريرة

رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: " ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيتُ وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة "[1] يعنى أن معجزات الأنبياء السابقين – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – كان معظمها من قبيل الخوارق الحسية التى تجعل المشاهد يؤمن بها، فإذا مضى زمنها انقضت وانقطع أو كاد المصدقون لها، وأما معجزة نبينا محمد ﷺ أى معظم معجزاته وأهمها القرآن الكريم، فهو الزاخر بالحجج القطعية والبراهين العقلية لا تنفذ عجائبه ولا يخلق بكثرة الترداد، وكلما تعاقبت السنون وتوالت الأجيال، واتسع نطاق العلم وتقدمت الصناعات والفنون، عظمت قيمة هذا الكتاب، وظهر للناس صدق أخباره وحقيقة إعجازه، ومدى تسامحه مع أهل الأديان جميعهم، فبذلك كثر أتباع محمد ﷺ ودخل الملايين فى دين الله أفواجاً، فظهر أن قتاله ﷺ وجهاده الكفار والمنافقين لم يكن للإكراه على الدين ، وحمل الناس على الدخول فيه بالقوة والقهر؛ وإنما كان لدرء الفتنة وصد هجمات المعتدين، كان لحماية الملة وصيانة الدولة من عبث العابثين وكيد الأشرار والحاقدين، وهذا أمر لابد منه فى كل زمان ومكان فهو ضروري لكل أمة لها كرامة تحتفظ بها ودين تغار عليه ونظام يحرص على تنفيذه لم يخل ذلك دين سماوى ولا قانون وضعي، ومن أدار نظره فى مختلف القوانين السارية الآن وجدها تنص على استعمال الشدة والقسوة مع كل من يحاول العبث بنظام الدولة وشكل الحكومة أو يعتدي على حريات الناس وعقائدهم وغير ذلك من أنواع العبث والفساد في الأرض، وفى ذلك يقول الحق في محكم

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن حديث رقم ٤٩٨١.

كتابه: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج:٤٠]، ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١].

ومن هنا يُعلم سقوط ما يدعيه بعض الكتاب الغربيين وأشباههم من أن الدين الإسلامي دين غلبة وقهر لم يقم إلا على القوة والعنف ولم يترعرع إلا تحت بارقة السيوف، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥]، ولو كان ما تشدق به هؤلاء له نصيب من الصحة لكان القسيسون والرهبان – نظراً لما لهم من المكانة في دينهم والتوغل في التمسك بعقيدتهم أولى بالإكراه والقتل ممن عداهم – مع أن نبينا محمد ﷺ نهانا عن قتلهم كما نهانا عن قتل النساء والأطفال، فمن وصاياه عليه الصلاة والسلام لبعض أمراء جيوشه " **اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون في الصوامع منعزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صبياً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناء** " وكان رسول الله ﷺ إذا أقر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل ومن معه من المسلمين، ثم قال: " **اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلو ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً** " [١]، وعن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: " **إنما بعثني الله مبلغاً ولم يبعثى الله متعنتاً** " [٢] أى أن الله تبارك وتعالى بعثنى للناس مبلغاً وحيه معرفاً شرعه مبيناً لهم ما فيه صلاهم وقوام سعادتهم، ولم يبعثنى الله جباراً متشدداً، أكمم أفواه الناس وأضغط على حرياتهم، فأشق عليهم فى معاملاتهم، أو أكلفهم من

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير حديث رقم ٤٦١٩.

(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن.

ما فيه صلاحهم وقوام سعادتهم، ولم يبعثنى الله جباراً متشدداً، أكمم أفواه الناس وأضغط على حرياتهم، فأشق عليهم فى معاملاتهم، أو أكلفهم من الأعمال ما لا يطيقون وألزمهم من الدين ما هم له كارهون، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، أى لا يصح ولا يتصور ولا ينفع الإكراه فى الدين، لأن الدين أساسه الاعتقاد القلبى والإذعان الباطني، وهذا الأمر لا يجبر عليه المرء إجباراً، وإنما يقبله طوعاً واختياراً، فالدين بطبيعته يتأبى الإكراه عليه ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وهو خطاب من المولى عز وجل لنبى الإسلام محمد ﷺ، أى لا تكرهوا الناس، ولا تجبروهم على الدخول فى دين الله تعالى، ولا تتعرضوا لهم بسوء ما داموا متمسكين بأحد الكتابين (التوراة والإنجيل) ولم يقاتلوكم أو يظاهروا عليكم أحداً دون أن يحصل منهم خيانة أو غدر.

ويُعضد هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال النبى ﷺ ألا استكرهما فقد أبيا النصرانية، فأنزل الله هذه الآية ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وينبغى أن يعلم إقرار الإسلام لليهودى أو النصرانى على دينه وإعطاءه الحرية فى القيام بشعائره حتى أنه أوجب على الابن المسلم إذا كان أبوه يهودياً أو نصرانياً وطلب منه أن يحمله إلى دار عبادته لعجزه عن الذهاب إليها لوجب عليه أن يطيع أباه أو أمه فى ذلك ويوصلهما إلى دار العبادة، ينبغى أن يعلم أن هذا ليس ضعفاً فى الإسلام أو المسلمين، وإنما هى القوة الكامنة فى الإسلام احتراماً للحريات وتوقيراً للديانات وأصحابها وتحقيقاً

لمبدأ العدالة والإنصاف، فالمسلم يعتقد أن الدين الذى يجب اعتناقه وبه تحصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو الإسلام دون ما عداه ولكنه مع ذلك يرى من الواجب عليه ألا يتعرض لأحد من أهل الكتابين بسوء؛ فلا يسفك لهم دماً، ولا يهتك لهم عرضاً، ولا يأخذ منهم مالاً إلا بحق شرعى، ولا يجور عليهم فى حكم من الأحكام، ولا يحول بينهم وبين القيام بشعائرهم وواجبات دينهم، ولا يرى بأساً فى معاملاتهم وأكل طعامهم، والتزوج بالمحصنات من نسائهم إلى غير ذلك مما هو مسطور ومشهور، فالدين الإسلامي يزن الأمور بقسطاسها المستقيم، فلا يهضم حقاً من حقوق الإنسان الطبيعية ولا يعتدى على شئ من حرياته، ولقد كان له سلطان وكان فى أبنائه شدة وقوة، لكنهم لم يتخذوا ذلك أداة للسلب والنهب واغتصاب الحقوق الشرعية، ولم يستعملوا الشدة قط لخنق الحريات وإكراه أحد على ما لا يريد، فأين هذا مما نراه اليوم فى "فلسطين والقدس العربية الإسلامية ثالث الحرمين وأولى القبلتين حيث يرتكب العدو الصهيونى أقسى ما عرفه التاريخ الإنساني من الوحشية والهمجية وارتكاب المذابح والمجازر التى تشيب من هولها الولدان.

والمسلمون غدوا لا جمع يجمعهم　　واستمرعوا الذل من أشرار صهيون

فأين أبطالنـــا الشجعـــان أين هم ؟　　يؤدبون عصابـــــات لشـــــــــارون

أين حماة الإسلام الذين يقلمون أظفار هؤلاء المعتدين ؟ ويؤدبون هؤلاء الأشرار الذين لا همّ لهم إحداث القلاقل، والتعرض للحرمات وتدمير الديار على رؤوس الأبرياء ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣].

سادسا : صور من تساح الرسول مع غير المسلمين

شتان ما بين موقف وموقف: فموقف اليهود مع الرسول ﷺ وموقفه ﷺ منهم فى خيبر يحسن أن تقف قليلاً لنسجل حسن مقابلة النبى ﷺ ليهود خيبر بالرغم مما فعلوه معه ﷺ من مكائد يندى لها جبين الإنسانية – كان من بين ما غنم المسلمون من غزوها عدة صحائف من التوراة فطلب اليهود ردها فأمر النبى ﷺ بتسليمها لهم – ويا له من موقف جليل لا يتخذه غير المصطفى ﷺ وغير خلفائه وحاملى المشعل من بعده[1].

إن عظمة هذا الموقف تبدو فى أجلى معانيها إذا لاحظنا أن شريعة الحروب فى ذلك الحين كانت تعطى المنتصر حق التصرف المطلق بحكم الفتح فى شخص المنهزم، وكل ما يملك ومن لـــه عليه ولاية، وأن هذا الزمن لم يكن يعرف ميثاق الأمم المتحدة ولا ميثاق حقوق الإنسان بما ينص عليه من احترام الشعائر الدينية ورعاية الأسرة وعدم التفريق فى المعاملة بسبب اختلاف اللون أو الجنس أو الدين أو الوطن.

وإذا لاحظنا كذلك أن اليهود كانوا أشد أعداء الإسلام خصومة وأكثرهم إساءة إليه، وأخبثهم تآمراً على النبى ﷺ وأصحابه وأنهم لو ملكوا من أمر المسلمين شيئاً لما تورعوا عن التنكيل بهم، وإذا لاحظنا أن الرومان حين فتحوا (أورشليم) أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم، وأن النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى أسبانيا أحرقوا كتبا للتوراة ولكن محمداً ﷺ والذين آمنوا معه يحترمون الصحف التى أنزلت على الرسل من قبله تقديساً لكلمات الله وتوصيات أنبيائه.

---

(١) القيم الخلقية والإنسانية فى الغزوات، الأستاذ حسن فتح الباب، مطبعة الأزهر، ١٩٧١م.

لقد كانت صفية بنت حُيىّ بن أخطب إحدى سبايا (خيبر)، وقد قتل أبوها، وكان من زعماء يهود بنى النضير، كما قتل زوجها كنانة بن الربيع في الحرب، فقيل للنبى ﷺ "صفية سيدة بنى قريظة والنضير لا تصلح إلا لك" فأعتقها ﷺ وتزوجها، وفى هذا الزواج دلالة واضحة على تآلف جميع أفراد الجماعة حتى العصاة منهم بالرفق بهم الإحسان إليهم من طريق القربى والمصاهرة وما إليها من أسباب التقارب والوحدة لما تكفله لها من مزيد من القوة المعنوية التى لا تقل عن القوة التى يكفلها الانتصار فى الحرب وحيازة الغنائم، ولأن مثل هذه الرابطة رابطة المصاهرة من تقاليد العظماء الفاتحين الذين كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التى يفتحونها، وفى ذلك تخفيف عن مصائبهم وحفظ لكرامتهم وزيادة قربى عليهم ضماناً لخدمة مصالحهم واستقرار السلام فى أوطانهم وربوعهم.

الرسول ﷺ ينادى بالسلام فى كل موقف، مثال فتح مكة:

إن الوقائع الدالة على مقصد الرسول ﷺ كما سطرها التاريخ تطالعنا فى كل موقف بحرص الرسول ﷺ على السلام وحرصه أيضاً على حقن الدماء، وعلى هذا الأساس جعل النبى خطته فى مباغتة قريش على غرة منهم فلا يجدون له دفعاً فيستسلمون من غير أن يكون ثمة قتال وإنجازاً لهذه الغاية تكتَّم الأمر وأحاط خطته بسياج من السرية فلم يفض به إلى أحد حتى لزوجاته، ولم يخبر المسلمين أنه سائر إلى مكة إلا بعد أن أمرهم بالتجهيز فتجهزوا ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف عن مسيرهم على نبأ، وكان الهدف من ذلك ألا يترك

للمشركين الفرصة حتى يستعدوا ويعبئوا قواتهم لقتال المسلمين ليأخذوا الأعداء على غرة فيتحقق الفتح دون إراقة دماء، وتحقق الفتح بفضل صدق توجه الرسول ﷺ وصدق توجه أصحابه، ولذلك أمر الله نبيه ﷺ أن يتوجّه بالشكر إلى ربه بعد هذا النصر المبين والفتح الأعظم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:١-٣].

حرص الرسول الفاتح على كسب معركة الفتح دون إراقة دماء ومن غير حرب، ويتجلى ذلك فى إصدار أمره إلى فرق الجيش كلها ألا تقاتل، وألا تسفك دماً إلا إذا أكرهت على ذلك إكراهاً، واضطرت إلى ذلك اضطراراً، وتجلى ذلك أيضاً في استبدال قيس بأبيه سعد بن عبادة الذى نصّبه أميراً على فرقة أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربى وحين بلغه قول سعد وهم يتأهبون "اليوم الملحمة"، غضب الرسول ﷺ وقال: " اليوم يوم المرحمة " وفى سبيل حقن الدماء لم يعترض النبى ﷺ على رغبة عمه العباس بن عبد المطلب فى السفارة إلى قريش لتخلى بين ابن أخيه وبين وضع يد المسلمين على البيت الحرام الذى جعله الله مباركاً، ومثابة للناس وأمناً وليقنعها أنه لا جدوى من قتال هذا الجيش العظيم الذى لا عهد للعرب به من الجنود والكماة والأقوياء.

ولما طلب عمر بن الخطاب أن يضرب عنق أبى سفيان رأس الشرك حينما شاهده مع العباس قال الرسول لعمه وقد رجا أن يجير أبا سفيان أذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به وتشهد خيمة رسول الله ﷺ فى الصباح مواجهة حاسمة بين الحق والباطل، ويضرب النبى العائد المثل الأعلى فى إيثار السلام على الحرب إذ يسلم أبو سفيان،

ويقول العباس للنبى ﷺ: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فيقول رسول الله ﷺ: نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن [1]، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن ثم يهيئ الرسول ﷺ كل فرصة ويفتح كل باب ويمهد كل سبيل للسلام لا عن خشية بأس قريش وإنما عن رغبة فى السلام وحرصاً على استقراره فى أم القرى التى أكرمها الله إذ أوحى الله إلى نبيه إبراهيم أن يقيم فيها قواعد البيت الحرام والتى أكرمها الله حق الإكرام، إذ جعلها ميلاد صاحب الرسالة العظمى سيدنا محمد ﷺ.

ثمة دليل آخر وموقف جليل ينهض على تأكيد قيمة السلام فى الإسلام، إذ يفتح الله على رسوله مهبط الوحى فيدخله والمسلمون آمنين مطمئنين، وتضرب قبة للنبى ﷺ على مقربة من قبرى أبى طالب وخديجة، ويُسأل الرسول هل يريد أن يستريح فى بيته ؟ فيجيب الرسول ﷺ كلا، فما تركوا لى بمكة بيتاً، ثم يخرج ويمتطى ناقته، ويسير بها حتى يبلغ الكعبة، فيطوف بالبيت سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده، وحين يقضى طوافه يدعو عثمان بن طلحة، فيفتح الكعبة فيقف سيدنا محمد ﷺ على بابها، ويتكاثر الناس فى المسجد فيخطبهم قائلاً : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

ثم يسألهم الرسول ﷺ يا معشر قريش : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، ولو شاء الرسول الكريم لأمر بقطع رقاب القوم الذين بغوا وطغوا فى الأرض

---

(١) انظر الحديث في سنن أبي داود – كتاب الخراج.

وأكثروا فيها الفساد، والذين اتخذوا من دون الله أرباباً، والذين كم اشتد به وبصحابه أذاهم، واشتدت قطيعتهم وائتمروا به ليقتلوه والذين عذبوه وأصحابه وقاتلوه فى بدر وفى أحد وحاصروه فى غزوة الخندق، ولكنها قيمة الإسلام الحقيقية التى يغرسها الله فى نفس نبيه الكريم وصحابته الأجلاء، ويحصل للمسلمين فى رسول الله قدوة صالحة وأسوة حسنة فهو يعفو عند المقدرة ليستل من نفوس قريش باعث الحقد والضغينة، ويقضى على عوامل الشحناء، ويزيل الغل من قلوبهم ويطهرهم من رجس الشر ويوثّق بينهم عرى الألفة والمحبة بعد أن دخلوا فى دين الله أفواجاً، والمثل الأعلى الذى يضربه محمد فى فتح مكة إنما يضربه للناس فى كل مكان وزمان إذ يؤكد بهذا السلوك الكريم معنى السلام كحقيقة أساسية فى العقيدة الإسلامية، وضرورة حيوية لا غنى عنها لصالح العالم وخيره.

ولكي يعيش المرء فى أمن يكفل له النفع لبناء حياة الرخاء والإسهام فى بناء العقيدة وتنمية المجتمع يجب أن يؤمن بالسلام سبيلاً لذلك، وأن يدعم إيمانه بالعمل، فإذا جاءه أخ له فى الإنسانية يبغى التعارف والألفة والتعاون فليمد له يده وليمنحه ثقته وليتعاون معه فذلك هو الطريق القويم.

الطريق القويم الذى تصلح به النفوس ويزول منها القلق فيصلح المجتمع وتتقدم البشرية. إن قولة السلام واجبه على المسلم كلما جاءه أحد المؤمنين بدين الله الحق ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:٥٤]، بل ولو جاءك أحد من أهل الديانات المشركين وطلب منك النجدة لوجب عليك أن تسارع وتخف إلى نجدته يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ

مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة:٦]، بل إن قولة السلام واجبة حتى لمن اتسم بسوء الخلق حتى لا يتحول الأمر إلى صراع ينتهى بالخصومة والعدوان، وتترسب عنه أحقاد كامنة لا تلبث أن تشعل الحرب من جديد أخذاً بالثأر، وتتوالد بذلك العداوات وتستمر الحروب التى كانت بدايتها لا تعدو لفظاً جارحاً أو سلوكاً نابياً يقول تعالى:﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ [الفرقان:٦٣].

سماحة الرسول وأصحابه في معاملة غير المسلمين :

حينما جاء الصديق أبو بكر بأبيه أبى قحافة – وكان ضريراً – لم يهد الله قلبه للإسلام، فلما رآه النبى ﷺ قال لأبى بكر "هلا تركت الشيخ فى مكانه حتى أكون أنا آتيه فيه" فقال أبو بكر الصديق هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت، فأجلس الرسول الشيخ بين يديه ومسح صدره، ثم قال أسلم فأسلم وحسن إسلامه، ويمثل هذا المشهد أكثر من قيمة روحية أظهرها رسول ﷺ الله إذ نلتقى بقيمة التواضع والسماحة والعفو عند المقدرة ونلتقى بقيمة الرحمة بالأعمى والشيخ وغيرهما من الضعفاء والتعاطف معهم ولو كانوا من غير المسلمين، كما نلتقى بقيمة الحب والتقدير للأعوان المخلصين، فلقد أكرم سيدنا محمد ﷺ والد صفيه أبى بكر الصديق رضى الله عنه شفقة عليه وتكريماً للصديق الجليل.

ولمّا دخل عمرو بن العاص مصر واستولى على "بلبيس" وجد بها أرمانوسة بنت المقوقس، فلم يمسها بأذى ولم يتعرض لها بشر بل أرسلها إلى أبيها فى مدينة (منف) مكرمة الجانب معززة الخاطر فعدّ المقوقس هذه الفعلة جميلاً ومكرمة وحسبها له حسنة، وساعد فعله هذا فى خلق جو

من الحب والود بين المسلمين والأقباط، وحينما فتح المسلمون مصر حافظوا على الكنائس والأديرة وحرروا الإنسان بداية ونهاية.

وقد جاء فى معاهدة عمرو بن العاص لأهل مصر هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وأموالهم، وملتهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شئ من ذلك، ولا ينقض[١].

حقوق أهل الكتاب في الدولة الإسلامية : أصل الحقوق

وقد ثبتت لأهل الكتاب حقوق تقوم كلها على قاعدة أصلية: أن لهم مثل ما للمسلمين، وعليهم مثل ما على المسلمين إلا ما استثنى بنص أو إجماع، وذلك هو مقتضى الشركة فى الوطن الواحد، فأول الحقوق التى تشمل حمايتهم من كل عدوان خارجي ومن كل ظلم داخلى، هو تمتعهم بحماية الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

حق الحماية :

فأما الحماية من العدوان الخارجي فيجب لهم ما يجب للمسلمين، ويجب على الحاكم المسلم أن يوفر هذه الحماية لهم و"لو كانوا منفردين ببلد" لأمن أحكام الإسلام جرت عليهم وتأبد عقدهم، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين. بل لقد نص الفقهاء بلسان ابن حزم الظاهرى – على أن "من كان فى الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن

---

(١) المسيحية والإسلام فى مصر: د. حسين كفافى، الهيئة المصرية للكتاب.

نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو فى ذمة الله ورسوله، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة".

ويعلق القرافى – المالكي – على هذا النص فيقول: "فعقد يؤدى – إلى إتلاف نفوس المسلمين وأموالهم فى سبيل الدفاع عن أهل الكتاب إنه لعظيم".

وحين كانت القيادة الفقهية الراشدة آخذة مكانها الصحيح فى سلم القيادة الإسلامية استمسكت بذلك حتى أصر شيخ الإسلام ابن تيمية على إطلاق من فى أسر التتار من أهل الذمة مع إطلاق المسلمين. فقال لقائد التتار "لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لا من أهل الذمة ولا من أهل الملة" "وأما الظلم فى العلاقات الداخلية، فقد تكاثرت على تحريمه نصوص القرآن والسنة. ونطقت باستنكاره فى خصوص أهل الذمة أحاديث رسول الله ﷺ والآثار عن الصحابة، حتى صرح غير واحد من الفقهاء بأن قواعد الإسلام تقتضى أن ظلم الذمى أشد إثماً من ظلم المسلم[1].

وحق الحماية يشمل الدماء والأنفس والأموال. حتى قال علي رضى الله عنه : "من كانت له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا".

وفى الفقه الإسلامي آراء تختلف وتتفق. يتخير منها الناظر ما وافق هذه الأصول فيقبله. ويرد ما لا يوافقها ولا يعمله والأمثلة على ذلك كثيرة.

---

(١) حقوق غير المسلمين فى المجتمع الإسلامي، ص ١٠، طبعة ١٩٧٧م.

حرمة الأنفس والأموال

والأصح : حرمة مالهم ولو لم يكن متقوماً فى نظر الإسلام كالخمر والخنزير. وجواز إقامة دور العبادة التى يتعبدون فيها. وقبول شهادتهم إلا فى الأمور الدينية للمسلمين من نحو الزواج والطلاق وما يجرى مجراهما. وجواز أمان الفرد منهم موقوف على إجازة الإمام، فإن لم يجزه وجب عليه رد المؤمن إلى مأمنه.

حق تولي الوظائف العامة

ويجب ضمان الحياة الكريمة لهم عند الكبر، بل إن ذلك من فروض الكفايات: إذا عجز عن القيام به بيت المال وجب على المسلمين كافة، لا يسقط إلا بأدائه ويجب على الحاكم المسلم فك أسرهم من أيدى المحاربين، والحق جواز تولى القادر منهم الوظائف العامة فى الدولة إلا ما كان ذا صبغة دينية كالإمامة ورئاسة الدولة وقيادة الجيوش فى الجهاد والولاية على الصدقات ونحوها[1].

الواجبات المقابلة للحقوق

ومع هذه الحقوق يثبت على أهل الكتاب واجبات أولها: أداء التكاليف المالية من خراج وضرائب وهم فى تكليفهم بالخراج والضرائب هم والمسلمون سواء، فليس فيها شئ يجب باختلاف الدين. وإنما تجب على أنواع الأموال والتجارات والأراضي المزروعة دون نظر إلى صاحب أى منها: مسلماً كان أو غير مسلم.

---

(١) الأقباط والإسلام: للدكتور محمد سليم العوا.

وثانيها: التزام أحكام القانون الإسلامى. لأنه قانون الدولة التى هم مواطنوها، ويحملون جنسيتها، وهذا كما يجب عليهم يجب على المسلمين من أبناء الدولة. فلا مزية فيه لأحد، ولا نقص يدخل به على أحد.

وثالثهما: مراعاة شعور المسلمين، فلا يجوز لهم أن يسبو الله ولا رسوله ولا دينه ولا كتابه جهرة، ولا أن يروجوا من الأفكار ما ينافى عقيدة الدولة ما لم يكن ذلك جزءاً من دينهم كالتثليث والصليب عند النصارى، وعلى أن يقتصروا فى ذلك على أبناء ملتهم. ولا يذيعونه فى أبناء المسلمين ليفتنوهم عن دينهم.

وهذا الواجب يقابل الواجب الملقى على المسلم ديناً باحترام ديانات الأنبياء قبل محمد ﷺ، والإمساك عن جدال أهلها إلا بالتى هى أحسن، وبالإحسان إليهم أداء لحق ذمة الله ورسوله والمؤمنين، وإذا انتقلت تلك الحقوق والواجبات فى الدولة الإسلامية العصرية من النطاق العقدى إلى النطاق الدستورى، فإن ذلك لا يؤثر بشئ فى التزام الدولة الإسلامية العصرية بها قضاء من حيث هى واجب أو حق دستورى، وديانة من حيث هى راجعة فى أصل تقريرها إلى وضع دينى، وفى ذلك مزيد تحقيق لمصلحة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية، وزيادة ضمان لحقوقهم، فإن ما أوجبه الدين لن يستطيع حاكم مسلم أن يتحلل منه أو يجاهر بعدوان عليه أو إنكار له.

صور من عدالة المسلمين مع الأقباط

وقد أطلقوا حرية العبادة، ولم يضغطوا على أحد فى اعتناق الإسلام، وأنهم يجلون الرهبان والبطاركة والقساوسة، وعكس ما سبق هو ما يعانيه الشعب المصري من والى الرومان الذى أرهقهم وأذاقهم صنوف

العذاب ألواناً، ليدفعهم لاعتناق ملة الإمبراطور ويتركون الأرثوذكسية المصرية، وأشاع فيهم العذاب والعسف والقتل وقضى تعذيبه لشقيق (باباهم بنيامين) أبشع ما يكون التعذيب وفى النهاية ألقاه فى البحر داخل جوال.

وهكذا استطاع المسلمون أن يغزوا قلوب (الأقباط) المصريين بشجاعتهم، وهمتهم، وفروسيتهم من جهة، وبساطتهم، ورقتهم، وحسن معاملتهم، وقرب عاداتهم مما هم عليه من عادات، وطرق معيشتهم البسيطة من جهة أخرى، وكان المصريون يتساءلون: ألا تعجبون من هؤلاء القوم المسلمين يتغلبون على جنود الاحتلال الطغاة، وهم – أى المسلمون – قليلو العدد والقوة ؟ فيجيب أحدهم : إن المسلمين يأتون محررين، فاستطاعوا أن يلمسوا قلوب المصريين، وكان يتردد فى كل مكان أن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه، أى إلا انتصروا عليه.

وما أن انتهى عمرو بن العاص من القضاء على الحاميات العسكرية لجيش الاحتلال البيزنطي، وتطهير القلاع والأبراج المنتشرة على أطراف الحدود المصرية والمواقع الاستراتيجية، وبعد تصفية الجيوش المنتشرة ، وبعد أن انتهت مراسم توقيع معاهدة الإسكندرية وجلاء البيزنطيين عن الأراضى المصرية، وتأمين الحدود انتهى كل ذلك حتى بدأ عمرو بن العاص فى لقاءاته مع القيادات الشعبية المصرية. وخلال الأعوام الثلاثة الأولى التى أمضاها عمرو فى مصر فى أحداث وقلاقل، وقتال وحروب، وهجوم ودفاع، فى مطاردة لفلول الهاربين من

بقايا جيش الاحتلال فى كل مكان. انتهى كل ذلك وعاش الجميع مسلمون ومسيحيون فى أمن وسلام.

وفى هذا الصدد يحكى فى تراث الكنيسة القبطية أنه بعد أن حرر عمرو بن العاص مصر من الروم جاءه حوالي سبعون ألفاً من الفارين والهاربين من حكم الروم (البيزنطيين)، جاءوا وهم شبه عراة فى حالة من البؤس يرثى لها، ممزقى الثياب، وطالبوا عمرو بحريتهم الدينية، فاستجاب عمرو لهم، وفى نفس الوقت انزعج عمرو لما وصل إليه حال المصريين، وأمر على الفور أن يرسل إلى جميع الأقاليم والكفور وكل الجهات، يدعو فيها (البطريرك) الهارب للعودة إلى مقره دون خوف مطلقاً، وأمّنه على نفسه وعلى مرافقيه من الرهبان والنساء، وبالفعل عاد (البطريرك) على حسن صنيعه، وأظهر له ولاءه، وتعانقا فى ود وحب، بعد سنين طويلة من الظلم والعذاب، والقلاقل، وذرفت الدموع، وأعطاه عمرو الكنائس التى اغتصبها الروم، وساعده فى إعادة بنائها وترميمها.

واطمأن البطريك على أن السلام سيعم البلاد ويظل يرفرف على مصر والمصريين جميعاً، من أسلم ومن بقى على مسيحيته وسيكون هو وأهله وعشيرته وأمواله وممتلكاته فى أمان واستقرار.

وهكذا استجاب عمرو بن العاص لطلبهم وأظهر ميله للأقباط فازدادوا ثقة فيه وخصوصاً لمّا وجدوه رحيماً بهم، ويسمح لهم بإقامة الكنائس وسط الفسطاط، وفى هذا الصدد يروى أن عمرو بن العاص اشترى قطعة أرض فى مدينة الفسطاط من سيدة يهودية لإقامة مسجد عليها وهو المسجد الذى أصبح مسجد عمرو بن العاص فيما بعد.

ومع استقرار الحكم فى مصر، والأمن والأمان الذى استمتع به المصريون مع عمل عمرو بن العاص، وإعطاء حرية العقيدة للمصريين وجه البطريرك التفاته إلى الأديرة التى خَربها الفرس أثناء حكمهم واستعمارهم لمصر، واجتهد فى إصلاحها، فرمّم وعمَّر كل تخوم وادى النطرون وبنى دير الأنبا بشيوى، وأعاد إليه رهبانه، ولما تجمّعوا واشتد عودهم، وأخذوا قسطهم من الراحة قصد بهم إلى دير أبى مقار فرمموه، وبنوا الكنيسة الكبيرة.

وأيضاً قد ساعد عمرو بن العاص المصريين فى بناء الكنائس وترميمها التى تهدمت إبان حكم الرومان.

وهكذا استمرت مسيرة السلام فى مصر بعد تحريرها وغردت طيور السلام فى كل ربوع مصر.

واستمر الشعب المصرى (القبطى) بعد ذلك على مدى قرون مسلمين ومسيحيين فى زورق واحد يبحر بهم فى غياهب التاريخ تتقاذفهم أمواجه.

وفى مجال الاستقرار لدخول الإسلام فى مصر فقد قام عمرو ابن العاص بإصلاح القناة التى تربط بين النيل والبحر الأحمر – والتى كانت تسمى قناة (داريوس) الذى أدى إهمالها إلى عدم صلاحيتها للملاحة فقام عمرو بتطهير القناة، وسميت بخليج أمير المؤمنين فعادت طريقاً صالحاً للملاحة.

والإسلام جاء إلى مصر بروحه التى لا تفاضل بين الناس بسبب: الحسب والنسب واللون والجنس والدين فمعيار التفاضل والتميز هو التقوى بمعنى السلوك القويم، لذلك اختلط المسلمون بالمصريين، واندمجوا

معهم وتزاوجوا بهم، وكان لفطرية الإسلام وبساطته أن أباح الزواج من النساء الكتابيات، والمصاهرة بين الشباب المسلم وبين الفتيات المصريات اللاتى فقدن عائلهن إبان التعذيب والتقتيل الفارسى والبيزنطى، وأيضاً خلال المشاركة فى الحياة الاجتماعية، فالإسلام أباح معاشرة ومصاحبة أهل الكتاب فى ضوء الكتاب والسنة النبوية، وطعام المسلمين حل لهم، وطعامهم حل للمسلمين، وتم إسلام هاتيك الزوجات من فعل المعاشرة الطبيعية، وكان لهذا الاختلاط والمعايشة أثره البالغ فى انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية، فضلاً على أثره فى انتشار اللغة العربية.

كما حرص الإسلام، وحسبما ورد فى الآيات القرآنية المتعددة والسنة النبوية، على الدعوة السلمية، والإقناع وعدم الإكراه فى الدين والمجادلة بالحسنى، وعدم الالتجاء إلى الحرب إلا لضرورة الدفاع عن الإسلام، والديار الإسلامية، ولذلك بعث الرسول الكريم بكتب إلى حكام الدول المختلفة منها رسالة إلى المقوقس والى مصر من قبل الدولة (البيزنطية) يدعوه إلى الإسلام.

دور المصريين في بناء الحضارة الإسلامية

فكان دخول الإسلام إلى مصر، والتحول من اللغة المصرية (القبطية) إلى اللغة العربية وهما من أصل لغوي واحد، بل وشارك الذين اعتنقوا الإسلام من مسيحيين ويهود فى بناء الحضارة الإسلامية ديانة ولغة، وأيضاً حياة اجتماعية، وهو ما يناقض تماماً موقف المصريين من الحضارتين البيزنطية ومن قبلها الرومانية رغم ما أصاب المصريين من اضطهاد وتعذيب لإجبارهم على نقل الحضارة البيزنطية، وهذا المسلك من جانب المصريين يؤكد أن التحول إلى الإسلام واللغة العربية لم يتم

بالإكراه، إذ أن العلاقة بين كتائب تحرير مصر من الروم، والشعب المصرى كانت علاقة كلها ود وإخاء ووفاء، وقد أعطى الإسلام المصريين حلولاً لكل مشاكلهم الحيوية اليومية، فأصبحوا يعيشون مطمئنين مستبشرين بحاضرهم متفائلين بمستقبلهم، إذ أصبح كل واحد منهم يأخذ حقه كاملاً غير منقوص كأحد أفراد المسلمين، ينعم هو وأسرته بجو من السعادة والرفاهية.

وبمقتضى عقد الذمة تلتزم الدولة بتأمينهم، وحمايتهم فى دار الإسلام والدفاع عنهم، الأمر الذى ترتب عليه معاملتهم معاملة حسنة، والتسوية بينهم وبين المسلمين فى الحقوق والواجبات، إعمالاً للمبدأ العام الذى جاء ذكره من قبل، الذى أمر به الإسلام بالنسبة لأهل الذمة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" فتحسن وضع المصريين بالمقارنة لما كان عليه حالهم وقت الحكم البيزنطى، لدرجة أنهم لم يكتفوا بمعاونة المسلمين أثناء تحرير مصر؛ بل ساندوهم ضد الروم حينما حاول هؤلاء استعادة مصر وفتح الإسكندرية عام ٢٥ هجرية.

وذكى من روح التسامح مع المصريين الأحاديث النبوية العديدة ومنها: "أن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً؛ فإن لهم منكم صهراً وذمة"، وجاءت "قبطها" فى حديث الرسول تفيد أهل مصر المصريين، وتجلت روح التسامح هذه فى المظاهر العديدة، منها حرية العقيدة، فقد تمتع مسيحيو مصر بحرية العقيدة خلافاً لما كان عليه حالهم فى العصر البيزنطى، ومن قبل الاستعمار الفارسى، ومن قبل الاستعمار الرومانى فبعد تحرير مصر والإسكندرية أعاد عمرو بن العاص البطريرك بنيامين إلى رئاسة الكنيسة الأرثوذكسية، والذى حضر إلى

مقابلة الوالى بعد أن أمّنه على حياته وحياة كل من فى عقيدته بعد هروب استمر ثلاثة عشر عاماً قضاها فى البرارى والكهوف هرباً من ظلم واضطهاد الروم، ويعد تعيين بطريرك ملكانى بدلاً منه، وهكذا بدأ البطريرك الشرعى يمارس قيادته.

وقد تم ترميم ما تهدم من كنائس فى عهد الرومان، كما تم بناء كنائس جديدة فقد بنيت كنيسة مار مرقس بالإسكندرية فيما بين عامى ٣٩ – ٥٠ هجرية، كما بنيت كنيسة بالفسطاط فى حارة الروم فى ولاية (مسلمة بن مخلد) فيما بين عامى ٤٧ – ٦٨ هجرية، ومن ناحية أخرى تجلت روح التسامح والود والعرفان بين المسلمين والمصريين، فقد انتصر المسلمرن للمصريين (الأرثوذكوس) على أعدائهم فى المذهب وهم الملكانيون، وردوا إليهم الكنائس والأديرة التى كانوا قد استولوا عليها فى عهد الروم. كما أن الخلفاء كانوا يتدخلون لنصرة المسيحيين إذ اشتكوا من عسف ولاة مصر معهم، وهكذا يتجلى لنا مدى سماحة المسلمين مع غيرهم من الأديان الأخرى وسائر الملل والنحل.

المراجع

١. الأقباط والإسلام، للدكتور محمد سليم العوا، دار الشروق، ١٩٨٧م.

٢. الإســـلام والنصـــرانية مع العلم والمدنية، للإمام محمد عبده، طبعة القاهرة، ١٩٥٤م.

٣. الترغيب والترهيب للمنذرى ، مطبعة الحلبى ، ١٩٣٣م.

٤. الحلال والحرام، للدكتور يوسف القرضاوى، مطبعة عيسى الحلبى، ١٩٥٦م.

٥. الديموقراطـــية الإســـلامية، للدكتور عثمان خليل، ١٩٥٨م، المكتب الفنى للنشر.

٦. السيرة النبوية ، لابن كثير، مطبعة عيسى الحلبى، ١٩٥٧م.

٧. العدالـــة الاجتماعـــية فى الإسلام، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق، ١٩٥٨م.

٨. القـــيم الخلقـــية والإنســـانية فى الغزوات، للأستاذ حسن فتح الباب، مطبعة الأزهر، ١٩٧١م.

٩. غـــير المسلمين فى المجتمع الإسلامى، للدكتور يوسف القرضاوى، ١٩٧٧م.

١٠. مـــن ســـماحة الإســـلام فى النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٨م.

١١. محاضـــرات فـــى النصرانية ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٨م.

حرية المعتقد الديني لغير المسلمين

فى ظل سماحة الإسلام

د. علي عبد العال الشناوى(*)

تمهيد :

الحمـــد لله رب العالميـــن، والصـــلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله – الرحمة المهداة والأمين الداعى إلى الله، والنور الهادى إلى الحق، وإلى صراط الله المستقيم، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله، وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد

فإن الذى دفعنى إلى الكتابة فى هذا البحث المتواضع عدة أسباب أهمها :

أ- شـــعورى بالمســـئولية أمـــام الله عـــز وجل، وأمام تعاليم ديننا الإســـلامى الحنيف الذى يجعل ثواب العلم النافع ممتداً حتى بعد أن يمـــوت الإنسان، ويفنى جسده لأن الإسلام بالنسبة لى كعامل فى حقل الدعوة الإسلامية هو المربى والمعلم والنبراس، والمبدأ والنهاية.

ب- شـــعورى بـــأن دعوة غير المسلمين إلى الإسلام أمر واجب، شـــريطة أن تكـــون هـــذه الدعوة قائمة على الحكمة والموعظة

(*) الأستاذ المساعد بقسم الأديان والمذاهب.

الحسـنة والجـدال بالتى هى أحسن؛ بالإضافة إلى تطبيق مبدأ التسـامح معهـم فى كافة جميع الحقوق كحق العقيدة الذى نحن بصدد الحديث عنه، ومثل حق الحياة، وحق الأمن، وحق التعليم والتعلم، وحق العمل، وحق التملك، وحق حرمة العرض، وحق الحوار .. الخ.

جـ- تصـحيح بعض المفاهيم الممزوجة بالأخطاء عند كثير من الـناس – والتى تدعو إلى بث الكراهية لغير المسلمين، وخاصة فى الجانب العقدى أو الدينى .. مما يؤدى إلى إيجاد الفجوة – أو توسيع الخرق على الرَّاقع إن صح التعبير.

د- تشـجيع بعض المسئولين – فى رابطة الجامعات الإسلامية – بجامعـة الأزهـر الشريف – لى فى المشاركة العلمية من أجل نشر الوعى القومى، وإبراز جوانب السماحة فى تعاليم الإسلام.

لهذه الأسباب مجتمعة اخترت أن يكون موضوع بحثى هو " حرية المعتقد الدينى لغير المسلمين فى ظل سماحة الإسلام "، وقد عالجت فيه النقاط الآتية: (الإخوة الإنسانية، وبيان من هم غير المسلمين؟ وأسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم، ودستور العلاقة مع غير المسلمين، وحرية المعتقد فى ظل سماحة الإسلام لغير المسلمين" ... وأخيراً أسأل الله عز وجل أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهة الكريم.

الأخوة الإنسانية :

جعل الدين الإسلامى غير المسلمين شركاء مع المسلمين فى الوطن منذ كانت للإسلام دولة .. دولته الأولى فى المدينة المنورة ، ودوله التى توالت أيامها بعد انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وحتى يومنا هذا.

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى فى الاجتماع البشرى أن يتجاور فيه جماعات من الناس مختلفين فى الألسنة والألوان قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

فالبشر جميعاً إخوة لأب واحد وأم واحدة، وإن تباعد بمعانى هذه الإخوة الإنسانية طُولُ الأمد بين الأصول والفروع[١].

وبالرجوع إلى كتاب الله عز وجل نلحظ أنه قرر هذه الحقيقة فى قولــه تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

ولما كان يوم فتح مكة أمر النبى ﷺ "بلالاً" – رضى الله عنه – أن يعلو على ظهر الكعبة، ويؤذن فى الناس، فصعد بلال على ظهر الكعبة وأذن فساء ذلك بعض سادة قريش فتكلموا، وكان ممن تكلم "عتاب بن أسد" قال: "الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام أما وجد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً ؟ وقال

---

(١) د. محمــد ســليم الغواط: كتاب الأقباط والإسلام، نشر دار الشروق بالقاهرة ط عام ١٩٨٧ بتصرف.

سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره، وقال أبو سفيان: إنى لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء، فأتى جبريل النبى ﷺ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا، فأنزل الله قولـه تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا"﴾ [الحجرات:١٣].

وقد زجرهم النبى ﷺ عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء، وفيها يؤكد للناس أنهم جميعاً عند الله سواء لا فرق بين أبيض وأسود، ولا فرق بين عربى وعجمى، ولا فرق بين سامى وآرى وحامى. فكلهم من أب واحد وأم واحدة، ثم تناسلوا وتكاثروا فصاروا على الأجيال أمما كبيرة، والأمم الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة، ليعرف بعض الناس بعضاً، ويأنس بعضهم إلى بعض، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى، فلا تفاخر بالأحساب والأنساب، وكثرة الأموال .. وفى يوم القيامة يقول الله تعالى لعباده: "إنى جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم"(١).

فالخطاب الذى ورد فى آية سورة الحجرات "يا أيها الناس" خطاب للناس جميعاً يشمل المؤمنين، وغير المؤمنين لأنهم إخوة فى الإنسانية، ويرجعون فى أصلهم لآدم وآدم من تراب، وتوزيع الناس إلى شعوب وقبائل ليس أمراً ذاتياً تتغير به حقيقة الإنسانية فى الناس، إنهم مهما اختلفوا شعوباً وأوطاناً فإنهم "إخوة قرابة ونسباً".

---

(١) راجـع محمـد أحمـد بـرانق وآخريـن: تفسير القرآن الكريم الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة: جـ٢٦ ، ص ٩٧ – ٩٨.

ولقد أكد النبى ﷺ هذه الأخوة الإنسانية فى خطبة الوداع حيث قال: يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وأن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى. ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد. فليبلغ الشاهد منكم الغائب"(١).

ومما يؤكد حرص الإسلام على مبدأ "الأخوة الإنسانبة بين البشر جميعاً" تمتع غير المسلمين بحقوقهم وحريتهم فى ظل الإسلام، حتى إننا لنجد فى السنة النبوية المطهرة النهى عن إيذاء أهل الكتاب، وفى هذا يقول الرسول ﷺ: "من آذى ذمياً فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله".

ومنه قوله ﷺ: "من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه، خصمته يوم القيامة"(٢).

وفى عصر الفاروق "عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – شكا إليه أحد أقباط مصر من أن ابن والى مصر (عمرو بن العاص) قد لطم ابنه لما غلبه فى سباق وقال له أتسبق ابن الأكرمين، فما كان من عمر إلا أن أمر بحضور والى مصر وابنه إلى مكة فى موسم الحج وفى جمع كبير بين الناس أعطى الفاروق "عمر بن الخطاب رضى الله عنه" الدُرة للقبطى وأمره أن يقتص من ابن الأكرمين، ثم اتجه إلى "عمرو بن العاص" رضى الله عنه وقال له تلك الكلمة المأثورة: "يا عمرو متى تعبدتم – أى استعبدتم – الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"(٣).

---

(١) راجع الشيخ محمد الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، نشر مكتبة الإيمان بالمنصورة، طبعة تمام ١٤١٥هـ/١٩٩٤م: ص٢٢٢ .

(٢) الحديث ورد فىالجامع الصغير للسيوطى، ط. دار الفكر بالقاهرة ، ج٢، ص٥٤٧ .

(٣) راجــع: ســماحة الإســلام وحقوق غيرا لمسلمين، لنخبة من كبار المفكرين وعلماء المسلمين، إصدار وزارة الأوقاف المصرية، طبعة عام ١٩٩١م، بالقاهرة ص٢٤ .

حقاً إن رعاية الإسلام لغير المسلمين من أهل الكتاب هى التى جعلت الخليفة عمر لم يفرق فى كفالة الدولة لبنيها بين مسلم وغير مسلم.. فقد حدث أن مرّ بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر فسأله عمر – رضى الله عنه – منْ أهْل الكتاب أنْتَ؟ فقال: يهودى فسأله: ما ألجأك إلى ما أرى قال: "الجزية، والحالة، والسن" فأخذ أمير المؤمنين بيده إلى منزله وأعطاه ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم.

كذلك جاء فى كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة: "جعلت لهم – أى لأهل الذمة – أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جريته، وَعُيِّلَ من بيت مال المسلمين وعيالة، ما أقام بدار الهجرة"[1].

وفى ساحة القضاء، لا يعطى الإسلام أى اعتبار لغير الأخوة الإنسانية والمساواة فيها، والواقع العملى أكبر دليل على ذلك . وقد ثبت أن الفاروق – رضى الله عنه – كتب كتاباً إلى قاضى القضاة أبى موسى الأشعرى قال له فيه: "آس – أى ساو – بين الناس فى وجهك ومجلسك وقضائك حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك.

وهكذا : يطلب عمر من القاضى أن لا يفرق بين المتخاصمين حتى فى نظرته أو مجلسه، ولو كان من أهل الكتاب .. وفى الآثر أن يهودياً خاصم علياً بن أبى طالب – رضى الله عنه – ابن عم الرسول ﷺ وصهره إلى أمير المؤمنين عمر فنادى أميرُ المؤمنين علياً بقوله:

---

(١) راجع: د/ محمد سليم العوا: الأقباط والإسلام ، ص٣٨ – ٣٩ بتصرف.

"قف يا أبا الحسن، فبدأ الغضب على عليّ رضى الله عنه، فقال له عمرو أكرهت أن نسوى بينك وبين خصمك فى مجلس القضاء، فقال على: لا ولكنى كرهت منك أن عظمتنى فى الخطاب فناديتنى بكنيتى ولم تصنع مع خصمى اليهودى ما صنعت بى"(١).

من هم غير المسلمين ؟ للإجابة على هذا السؤال – أقول وبالله التوفيق : "إن غير المسلمين أصناف كثيرة، يجمعهم جامع واحد، وهو عدم الدخول فى الإسلام، وإن كان لكل صنف منهم اسم خاص به .. وقد جمعت الآية القرآنية الكريمة فى سورة الحج أسماء غالبيتهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج:١٧].

وقد ذكر القرآن الكريم أيضاً صنفاً آخر يسمى بالدهرية .. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤].

وهذا تعريف موجز لكل صنف منهم:

أولاً : الصائبة: وهم الذين يعتقدون فى الكواكب، ويؤمنون بتأثير السيارات على الكون.

---

(١) المصدر السابق : ص ٤١ باختصار.

ثانياً: المجوس: وهم عبدة النيران القائلون بأن للعالم إلهين اثنين مديرين قديمين يقتسمان الخير والشر، والنفع والضرر، والفساد والإصلاح، ويسمون أحدهما النور، والثانى الظلمة.

ثالثاً: المشركون: وهم الذين يقرون بربوبية الله تعالى، ولكنهم يشركون معه غيره فى العبادة كعبده الأوثان من العرب، وعبدة الشمس، وعبدة الملائكة.

رابعاً : الدهرية : وهم الذين لا يعترفون بوجود مؤثر فى العالم فينكرون الإله الخالق، ويقولون أنه لا إله ولا صانع، وإنما وجدت هذه الأشياء دون خالق لها، وسموا بالدهرية لقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، وهم الملحدون فى عصرنا هذا.

خامساً : أهل الكتاب : وللفقهاء فى تعريفهم رأيان .. الرأى الأول: رأى فقهاء الحنفية وعندهم: الكتابى: هو كل من اعتقد ديناً سماوياً وله كتاب منزل كالتوراة والإنجيل، وصحف إبراهيم وشيث، وزبور داود، فلا يقتصر مسمى أهل الكتاب على اليهود والنصارى فقط بل يشمل غيرهم من أصحاب الكتب السماوية المنزلة.

الرأى الثانى : رأى فقهاء الشافعية والحنابلة: أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى دون غيرهم، فليس أصحاب صحف إبراهيم وشيث، وزبور داود عليهم السلام أهل كتاب، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ [الأنعام:١٥٦] ، والآية تدل على أن الطائفتين هما اليهود والنصارى دون غيرهم.

والراجح هو الرأى الثانى، وذلك لدلالة الآية الكريمة عليه .. ومن هنا يمكن القول بأن أهل الكتاب هم "اليهود الذين يتبعون التوراة، والنصارى الذين يتبعون الإنجيل.

وقد سماهم الفقهاء باسم "أهل الذمة" وكلتاهما تسميتان رقيقتان الأولى منهما عامة لكل اليهود والنصاري سواء أكانوا داخل حدود الدولة الإسلامية أم خارجها .. وأما الثانية فهى تختص باليهود والنصارى داخل حدود الدولة الإسلامية فقط.

وأهل الذمة معناها : أهل العهد والضمان، والأمان، والحرمة.

وفى اصطلاح الفقهاء: أهل الذمة هم المعاهدون من اليهود والنصارى ومن فى حكمهم ممن يقيم فى دولة المسلمين ، وسموا بذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسول الله ﷺ، وعهد جماعة المسلمين ، على أن يعيشوا فى حماية الإسلام ، وتحت راية المجتمع الإسلامى آمنين مطمئنين.وهذه الذمة تشبه حالياً ما يسمى فى العرف البشرى والسياسى باسم (الجنسية) التى تعطيها الدولة لرعاياها، وقد سماهم البعض (حاملى الجنسيات الإسلامية)[١].

---

(١) راجع المصادر الآتية :

بسام داود عجك، الحوار الإسلامى المسيحي/ ط الأولى عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م نشر دار قتيبة، ص ٣٥ – ٣٧، والشهر ستانى: الملل والبخل ، ج٢ ، ص٧١ ، والقرطبى: الجامع لأحكام القرآن الكريم: ج١٢: ص٢٢، ٢٣، وابن الاثير الكامل فى التاريخ: ط: ص٣، وأحمد بن على الجصاص: أحكام القرآن ج٢: ص٣٢٧، وجمال الدين بن منظور: لسان العجب: ج٥: ص٥٩ ، وعبد الكريم زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين فى دار الإسلام ط الأولى عام ١٩٦٣م ، مطبعة البرهان، جامعة بغداد ، العراق، ص٦٣ .

أسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم :

كانت سماحة الإسلام مع أتباع الديانات الأخرى ، تمثل أسس العلاقات فى التعامل مع غير المسلمين، فى بلاد الإسلام .. فسماحة الإسلام، وبراءته من التعصب وإجبار الناس على اعتناقه أمر واضح، ولقد كفل الإسلام للناس حرية العقيدة قبل أى قانون، وقبل الثورة الفرنسية بقرون كثيرة.

ومن هنا كان لزاماً علينا – بل ومن الضرورى – بيان أسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم . وهى كالآتى:

(١) صحيفة المدينة المنورة: كانت صحيفة (المدينة المنورة) أول توجيه يصدره النبى ﷺ بعد الهجرة لأهل المدينة، وضح فيها دعائم الأخوة التى تقوم بينهم فى مجتمعهم الجديد، وإنهم أمة واحدة أقر فيه اليهود على دينهم وأموالهم، وعاهدهم على الحماية والنصرة ما أخلصوا للدولة الجديدة، فقد كتب النبى ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وَادَعَ فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم.

وهذه الصحيفة بينت دعائم المجتمع الجديد، وأقر فيها النبى ﷺ اليهود على دينهم وأموالهم وعاهدهم على الحماية والنصرة، وقد تضمنت المبادئ الآتية:

أ- وحدة الأمة من غير تفريق بين أبنائها، وتساوى أبناء الأمة جميعاً فى الحقوق والكرامة يجير أدناهم على أعلاهم.

ب- تكاتف الأمة كلها دون الظلم والإثم ، والعدوان والفساد كائناً من كان الظالم والمفسد.

جـ- اشتراك الأمة فى تقرير العلاقات مع أعدائها لا يسالم مؤمن دون مؤمن؛ بالإضافة إلى تأسيس المجتمع على أحسن النظم وأهداها وأقومها.

د- مكافحة الخارجين على الدولة ونظامها العام، ووجوب الامتناع عن نصرتهم وحماية من أراد العيش مع المسلمين سالماً متعاوناً ، والامتناع عن ظلمهم والنعى عليهم.

هـ- لغير المسلمين الحرية فى ممارسة طقوس وشعائر دينهم، والمحافظة على أموالهم ولا يجبرون على دين المسلمين، ولا تؤخذ منهم أموالهم.

و- على غير المسلمين أن يسهموا فى نفقات الدولة كما يسهم المسلمون، وإن يتعاونوا معهم لدرء الخطر على كيان الدولة ضد كل عدوان، وعليهم أن يشتركوا فى نفقات القتال ما داموا محاربين.

ز- على الدولة أن تنصر من يظلم منهم، كما تنصر كل مسلم يعتدى عليه.

ح- على المسلمين وغيرهم أن يمتنعوا عن حماية أعداء الدولة ومن يناصرهم، وإذا كانت مصلحة الأمة فى الصلح، وجب على جميع أبنائها – مسلمين وغير مسلمين – أن يقبلوا الصلح، ولا يؤخذ إنسان بذنب غيره، ولا يجنى جان إلا على نفسه.

ط- حرية الانتقال فى داخل الدولة، وإلى خارجها مصونة بحماية الدولة، ولا حماية لآثم ولا ظالم.

ى- المجتمع يقوم على أساس التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢][١].

(٢) كتاب الرسول ﷺ لأهل نجران: بالرجوع إلى الوراء وإلى صدر الدعوة الإسلامية – نلحظ أن رسول الله ﷺ صالح أهل نجران على شروط اشترطها لأنفسهم وكتب لهم بذلك هذا الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

" هذا ما كتب محمد النبى رسول الله ﷺ لأهل نجران إذا كان له حكمه عليهم إنّ فى كل سوداء وبيضاء وحمراء وصفراء، وثمرة ورقيق وأفضل عليهم، وترك ذلك لهم: ألفى حلة، وفى كل رجب ألف حلة، كل حلة أوقية ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقى فليحسب، وما قضوا من ركاب أو خيل أو وروع أخذ منهم بحساب .. وعلى أهل نجران مقرى رسلى (أى ضيافتهم) عشرين ليلة فما دونها، وعليهم عارية ثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً وثلاثين ورعاً إذا كان كيداً باليمن ذو مغدرة (أى غدر) .. وما هلك مما أعاروا رسلى فهو ضامن على رسلى حتى يؤدوه إليهم .. ولنجران وحاشيتها ذمة الله، وذمة رسوله ﷺ على دمائهم وأموالهم وملتهم، وبيعهم، ورهباً نيتهم وأساقفهم وشاهدهم وغائبهم وكل ما تحت إيديهم من قليل أو كثير، وعلى أن لا يغيروا أسقفاً من سقيفاه، ولا واقهاً من وقيهاه (أى القائم على البيت الذى فيه

---

(١) راجع: مصطفى السباعى: كتاب اشتراكية الإسلام ، ط دار الشعب بالقاهرة ، ١٣٨١ هـــ / ١٩٦٢م ، ص ٣١٢، ٣١٤ ، بتصرف، وسماحة الإسلام وحقوق غير المسلمين، مصدر سابق، إصدار وزارة الأوقاف المصرية: ص٢٩ – ٣١ .

صليب النصارى) .. ولا راهباً من رهبانيته، وعلى أن لا يحشروا ولا يعشروا (أى تؤخذ منهم العشور) .. ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فالنصف بينهم بنجران على أن لا يأكلوا الربا من ذى قبل، فذمتى منه بريئة وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ، ولا معنوف عليهم، شهد بذلك "عثمان بن عفان، ومُعيقب، وكتب" أ.هـ[1] .

(٣) كتاب أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – أيضاً لأهل نجران: مما تجدر الإشارة إليه هنا: أن الخلفاء الراشدون والحكماء من المسلمين حذوا رسول الله ﷺ فى معاملة غير المسلمين فقد جاء بعد وفد نجران إلى أبى بكر رضى الله عنه فكتب لهم: "بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما كتب به عبد الله أبو بكر خليفة محمد ﷺ لأهل نجران أجارهم بجوار الله وذمة محمد ﷺ على أنفسهم وأرضيهم وملتهم ورهبانيتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يخسرون ولا يعسرون، ولا يغير أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانيته، وفاءً لهم بكل ما كتب لهم محمد النبى ﷺ وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله، وذمة محمد النبى ﷺ أبداً وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق"[2].

---

(١) راجـع: الحافظ بن سلام: كتاب "الأموال" ط عام ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، نشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة: ص١٨٢ .

(٢) راجع: الحافظ يعقوب بن إبراهيم كتاب الخراج: الطبعة السلفية السادسة عام ١٣٩٧ هـ : ص ٧٩ .

(٤) كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه لغير المسلمين فى بيت المقدس: كان من شأن الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يفى بعهده ويخلص فى الوفاء به إخلاص من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه، ومن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه يتجلى ذلك واضحاً فى الأمان والعهد والذى أعطاه لغير المسلمين فى بيت المقدس.

حيث كتب للنصارى فى بيت المقدس أماناً على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسه لا تهدم ولا تسكن، وحين جاء وقت الصلاة وهو جالس فى صحن كنيسة القيامة خرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده وقال للبطرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا: هنا صلى عمر، ثم كتب كتاباً يوصى به المسلمين ألاّ يصلى أحد منهم على الدرجة إلا واحداً غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها.

أما عهده لهم فقد كان مثالاً فى السماحة والمروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت فكتب لهم العهد الذى قال فيه "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين – أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها، وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وإن يخرجوا منها الروم واللصوت (أى اللصوص) فمن خرج

منهم كأنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا أمانهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء منن الجزية.

ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروح، ويخلى بيعهم وصلبهم –(جمع صلب)– فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم وليس لذى عهد من ظافر أن يطمع فى أمان أكرم من هذا الأمان.

وإنه كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهود ثم لا يقنع بها حتى يشفعها بالوصاة للولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة، وأن يوفى لهم بعهدهم وينصح عنهم (أى يدافع عنهم) ولا يكلفوا فوق طاقتهم[١].

بهذه المبادئ السامية، وبهذه القيم الإسلامية النبيلة السمحة أقام الإسلام دولة، وكون أمة لا تعرف – على اختلاف طوائفها وأديانها – الحقد ولا البغى، ولا القسوة والظلم، ولا يحركها ، أو يقيمها، أو يقعدها سوى البّر والرحمة، والتعاطف، وروح الإنسانية العامة .. الأمر الذى غدا فى ضمير خلفاء الأمة وحكامها وشعوبها، وحياتها ترجمة عملية وواقعاً حياً للحديث النبوى الشريف الذى يوثق فيه النبى ﷺ العروة بين الإيمان الحق، والعلاقات الإنسانية الصادقة حيث يقول: "لن تؤمنوا حتى تراحموا ، قالوا يا رسول الله كلنا رحيم قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة" رواه الطبرانى ورواه رواة الصحيح.

---

(١) راجـــع: أ/ عـــباس محمود العقاد: كتاب "عبقرية عمر" ، ط الجهاز المركزى للكتب الجامعية بالقاهرة، عام ١٣٩٩هـــ / ١٩٧٩م، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

دستور العلاقات مع غير المسلمين :

وضع القرآن الكريم قاعدة تعد الدستور الأساسى فى معاملة المسلمين لغيرهم من الناس وذلك فى قوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

فالآية واضحة تماماً فى تحديد كيفية العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين والعلاقة ترتقى على أمر أعظم من العدل .. الذى هو إعطاء كل ذى حق حقه – وإنما ترتقى هذه العلاقة إلى مرحلة الإحسان – وهو الزيادة على الحق وقد قدمت الآية لفظ البر الذى يعنى فعل الخير من أى ضرب كان على لفظ القسط الذى يعنى العدل، وهذه إشارة رائعة من الآية الكريمة إلى كيفية معاملة غير المسلمين فى حالة السلم، إنها علاقة قائمة على البر والإحسان وهو أمر فوق العدل، وفوق إعطاء الحقوق(١).

ولقد حفل القرآن الكريم بدعوة المسلمين إلى التسامح ، وأمرهم بالرفق والحسنى فى الدعوة إليه فأمر مناقشة المخالفين بالحسنى قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

---

(١) راجع : لسان العرب لابن منظور، ط١ ، ص ٣٧٢، ص١٥٩.

كما أوضح الله سبحانه وتعالى للنبى ﷺ أنه مكلف أن يبلغ الدعوة ويبشر بالإسلام، وليس مكلفاً أن يحمل الناس عليها بالقوة، وأمره أن يجير المشرك إذا لجأ إليه واحتمى به قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩]، وقولـــه: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلا﴾ [الإسراء:٥٤]، وقوله: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]، وكما سبق أمر الله للنبى ﷺ أن يجير المشرك إذا لجأ إليه واحتمى به وهذه سماحته ما يعلوها سماحة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦].

وأمر الله المسلمين بأن يفوا بعهودهم لمن عاهدوهم سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من المشركين، قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولا﴾ [الإسراء:٣٤]، وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا﴾ [النحل:٩١]، وقال: ﴿إِلا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤]. فهذا الدستور طبقه النبى ﷺ وخلفاؤه، وقواد المسلمين تطبيقاً عملياً لما عقدوا المصالحة مع أصحاب البلاد المفتوحة، وإذا كان من شأن

المنتصر أن يستبد ويملى شروطه بدافع الغيظ والانتقام والغرور بالقوة .. لكن المسلمين كانوا فى معاهدتهم مع المغلوبين كراماً، فأقروهم على عقائدهم وشعائرهم الدينية وأوصوا برعايتهم، والمحافظة على أموالهم والدليل على ذلك كالآتى:

عقد النبى ﷺ معاهدة مع قبيلة تغلب سنة ٩هـ، وكان الإسلام قد قوى ودانت به العرب – أباح لهم فيها البقاء على نصرانيتهم وصالح نصارى نجران وتركهم أحراراً فى دينهم ووجه أعماله إلى اليمن لأخذ الجزية ممن أقام على نصرانيته، وكذلك فعل مع النصارى واليهود جميعاً فى بلاد العرب.

وكان المجوس مبثين فى بقاع شتى من جزيرة العرب، منهم مجوس نجران وهجر، وعمان، والبحرين وهؤلاء بقوا جميعاً على دينهم.. ودفعوا الجزية.

ولما فتح النبى ﷺ مكة، قال لقريش: "ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟" قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لى ولكم"[١].

حرية المعتقد ، وممارسة الشعائر، وصون أماكن العبادة فى ظل سماحة الإسلام لغير المسلمين:

للإنسان فى منظور الإسلام كل الحق فى أن يعتنق الدين أو المذهب أو المبدأ الذى يشاء، وله كل الحرية فى أن يمارس شعائر دينه ما يراه علانية أو خفاءً كما أن له الحق أيضاً فى أن لا يعتنق على

---

(١) راجع: كتب السيرة النبوية، وفتوح البلدان للبلاذرى، والكامل للمبرد ج١، ص٢١٣، ومستند الإمام أحمد بن حنبل ج١، ص٢٤٧، وتاريخ الطبرى، ج٤، ص١٦٧.

الإطلاق أى دين طالما أن ذلك كله لا يضر بالآخرين .. ومن هنا فإن حرية الإنسان تنتهى عند بداية حقوق غيره.

وتقتضى حرية العقيدة حق الإنسان فيها وهو ألا يفرض على أى إنسان اعتناق دين معين، ولا أن يقهر عليه من أى سلطة كانت، حتى ولو كان هذا الدين هو الدين الرسمى للدولة، ولا أن يكره على مباشرة شعائر دين ما أو يشترك فى طقوسه ومناسكه .. واتصال العقيدة بحرية الإنسان ينبع من كون العقيدة هى ما ينعقد عليه قلبه وضميره ومن ثم فإن أساس تكوينها لدى الإنسان هو عقله وفكره، وقلبه ورغبته بالدرجة الأولى .. هذا ويتفرع على مبدأ الحرية فى اعتناق العقيدة إطلاق حرية الإنسان فى ممارسة شعائر دينه خفاءً أو علانية"[1].

ومن ثم نعلم أن العقيدة الصحيحة لا تتأسس إلا على الحرية والاختيار، ولهذا لا يعتد بإيمان المكره ، ولا يكفر أنه .. ولقد كان النبى ﷺ حريصاً كل الحرص على هداية الخلق إلى الحق رحمة بهم وانطلاقاً من أنه ﷺ رحمة للعالمين.

فالحرية الدينية كفلها الإسلام لأهل الكتاب .. فهم أحرار فى عقيدتهم ، وعبادتهم وإقامة شعائرهم فى كنائسهم ، ولهم أن يُجَدِّدُوا ما تهدم منها، وأن يبنوا جديداً ، ولهم الحق فى دق نواقيسهم إيذاناً بصلاتهم، ولهم إخراج صلبانهم فى يوم عيدهم.

ولم يحدث فى زمن الفتح الإسلامى أن هدم المسلمون كنائس أهل الكتاب أو حملهم على الإسلام، أو اضطهدوهم اضطهاداً دينياً أو

---

(١) راجــع: د/ عاصم أحمد عجيلة: كتاب: الحرية الفكرية وترشيد العقل فى الإسلام، ط الأولى، عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤، القاهرة ص١٨، ١٩ .

سياسياً يقتسرهم على أن يعتنقوا الإسلام وسيلة للنجاة .. ففى العهود السابقة أعطى عمر وغيره لأهل الكتاب الأمان على كنائسهم وصلبهم.. وفى المعاهدات مع فارس نص على حرية أهلها فى شعائرهم الدينية، وفى مصر أعطى عمرو بن العاص أهلها الأمان على كنائسهم وصلبانهم[١].

ويذكر المؤرخون أن المسلمين فى مصر وافقوا على ألاّ يحتلوا كنيسة وعلى ألاّ يتدخلوا فى شئون الأقباط بأية صورة من الصور .. ويذكر أن عَمْر ُبن العاص رضى الله عنه، جبى الضرائب المفروضة، لكنه لم يمد يده قط إلى شئ من أملاك الكنائس، ولم يأت بعمل من أعمال النهب والتدمير بل لقد حافظ على الكنائس إلى آخر أيامه[٢].

وفى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية كانت الكنائس تبنى بحرية، وكانت تشيد بموافقة الحكام، وأحياناً بمساعدتهم .. وقد ذكر السير توماس آرنولد: "أن بعض الخلفاء أمروا ببناء كنائس فى الشام، والعراق، وشمالى الجزيرة، ومصر، وأنفقوا عليها .. ومازال بعضها قائماً إلى اليوم مثل (كنيسة أبو سرجة) التى بُنيت فى الفسطاط فى العهد الإسلامى الأول، وقد بنى خالد القسرى – والى بنى أمية فى العراق وفارس – لأمة المسيحية كنيسة لتتعبد فيها – فى العهد الأول للدعوة الإسلامية، أيام أن كانت الحرب على أشدها بين المسلمين والروم المسيحيين[٣].

---

(١) راجع: تاريخ الطبرى: ج٤، ص٣٣٩ .

(٢) راجع: تريتون: كتاب أهل الذمة فى الإسلام، ترجمة: د/ حسن حبشى، القاهرة ، ص ٤١.

(٣) راجع: د/ إبراهيم سليمان عيسى: كتاب "معاملة المسلمين فى دولة الإسلام" ط الأولى عام ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، نشر دار المنار بالقاهرة، ص٩٥ .

ومن خلال ما سبق: نفهم جيداً أن الإسلام أقر بوضوح تام حرية الاعتقاد لكل الناس فلا إكراه لأحد على اعتناق الإسلام، وإن كان يدعوهم إليه، ويرغبهم فيه، والدعوة إلى دخول الإسلام، والإكراه عليه أمران متضادان تماماً، فالأول جائز مشروع، والثانى حرام ممنوع.

ومن القواعد الأساسية فى معاملة غير المسلمين ضمن هذا الإطار قاعدة (نتركهم وما يدينون) وهى للإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه[1].

وقد أثبتت الشواهد التاريخية صحة هذه المقولة وهى كثيرة جداً – منها عهد النبى ﷺ إلى يهود المدينة الذى جاء فيه (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم)، ورسالته ﷺ إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه فى اليمن والتى جاء فيها "ولا يفتتن يهودى عن يهوديته"[2].

وأيضاً عهد النبى ﷺ إلى أهل نجران جاء فيه (.. ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولا كاهن من كهانته وليس عليه دنيّة)[3].

---

(١) راجــع: أحمــد ابــن قودر قاضى زادة: كتاب: "تكملة فتح القدير" ، ط عام ١٩٧٠م (الطبعة الأولى)، القاهرة ج٧ ، ص٣٩٨ .

(٢) راجــع: ابن هشام السيرة النبوية، نشر دار بن كثير، دمشق سوريا: ج١، ص٥٠٣، وأبــو يوسف يعقوب من إبراهيم القاضى: كتب الخراج، الطبعة الخامسة عام ١٣٩٦هـ، نشر المطبعة السلفية بالقاهرة، ص٧٢.

(٣) الخراج لأبى يوسف ، ص٧٨ .

وقد حفظ رجال الدين من سطوة الحرب ، فقد جاء فى الحديث الشريف النهى عن قتل أصحاب الصوامع (أى رجال الدين والرهبان والعباد) تطبيقاً لمبدأ عدم الإكراه فى الدين حيث قال ﷺ: "لا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع"(١).

وفى خطبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه بجيوشه التى وجهها لتحرير العراق والشام جاء قوله: "وسوف تمرون بأقوام قد فرغّوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغّوا أنفسهم له"(٢).

ولعل من أروع الأمثلة على هذا التسامح الرفيع رغم أنه لم يكن هناك عقد أو معاهدة هو سماح النبى ﷺ لوفد نصارى نجران المؤلف من حوالى ستين شخصاً، بدخول مسجده الشريف، وجلوسهم فيه فترة طويلة، وعندما حان وقت صلاتهم قاموا متوجهين إلى المشرق ليصلوا صلاتهم فقام المسلمون لمنعهم عن ذلك، إلا أن الرسول ﷺ نهاهم عن ذلك وتركهم يصلون فى طمأنينة(٣).

وجاء فى عهد خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى سكان (عانات بفلسطين) ما نصه: "على أن يضربوا نواقيسهم فى أى ساعة شاءوا من

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى، الطبعة الثانية عام ١٩٧٨م، بيروت ، لبنان، ج١ ، ص٣٠٠.

(٢) راجع: محمد بن جرير الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، الطبعة الثانية عام ١٩٨٨م، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ج٢، ص٢٤٦ .

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٥٧٤ .

ليل أو نهار إلا فى أوقات الصلوات، وعلى أن يخرجوا الصلبان فى أيام عيدهم"[1].

وإن من أعظم الشواهد الواقعية على حرية المعتقد فى الإسلام هو ما يرى الآن من أماكن العبادة – الكنائس والمعابد والأديرة – منتشرة فى كل مكان من بقاع العالم الإسلامى، وهى شواهد عيان تنطق بحرية التعبد التى جاء بها الإسلام، فلو أن المسلمين كانوا لغيرهم من أتباع الملل والنحل ، لما شوهد برج كنيسة واحد، ولما سمع صوت ناقوس.

بل أن القرآن الكريم جعل حماية المعابد، وأماكن العبادة أحد الأسباب التى أبيح لأجلها الجهاد فى الإسلام، وذلك فى قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٣٩، ٤٠].

فالآية الكريمة تدل على أنه لولا ما شرع الله تعالى للأنبياء وللمؤمنين من جهاد الأعداء لاستولى أهل الشرك والكفر على أماكن العبادة ، ولتعطلت عبادة الله تعالى فى تلك الأماكن، ولكنه أوجب القتال ليتفرغ أهل الأديان للعبادة.

فالمسلم يبذل دمه وروحه، وكل ما يملك لأجل حماية الدين من أهل الملل المختلفة واستمرار بقاء معابدهم، ولذلك يقول ابن قيم

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص١٥٨ .

الجوزية: "وإن الله عز وجل يدفع عن متعبداتهم التى أقروا عليها شرعاً وقدراً ، فهو يُحبَّ الدفع عنها وإن كان يبغضها ، كما يُحبّ الدفع عن أديانها وإن كان يبغضهم"(١) .

وقد سئل الأستاذ الدكتور: يوسف القرضاوى عن معاملة الذميين فى دولة الإسلام وكيف فهمها السلف من الصحابة والتابعين، وكيف سارت عليها الأمة حتى اليهود فأجاب فضيلته فقال: "نظرة الإسلام لاتباع الديانات الأخرى تتلخص فى كلمتين (تسامح فريد)".

وتفضيل ذلك أن التسامح الدينى والفكرى لـــه درجات، أدنى درجاته أن تترك لمخالفك (حرية دينية وعقيدته) ولا تجبره بالقوة على اعتناق دينك أو مذهبك بحيث إذا رفض دينك حكمت عليه بالموت أو العذاب أو السجن.

والدرجة الوسطى من التسامح: أن تدع له حق الاعتقاد بما يراه من ديانة أو مذهب ثم لا تضيق عليه بترك أمر يعتقد وجوبه أو فعله لأمر يعتقد حرمته فإذا كان اليهودى يعتقد حرفة العمل يوم السبت فلا يجوز أن تكلفه بعمل فى هذا اليوم لأنه لا يفعله إلا وهو يشعر بمخالفة دينه، وإذا كان المسيحى يعتقد بوجوب الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد فلا يجوز أن يمنع عن ذلك.

وأعلى درجات التسامح: ألا تضيق على المخالفين لك فيما يعتقدون من حلال فى دينهم ولو كنت تعتقد أنه حرام فى دينك، وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة، لقد ارتفعوا معهم إلى

---

(١) راجع: أحمد بن حجر العسقلانى: كتاب: الدور الكامنة فى أعيان المئة الثامنة، طبعة دا الجيل، بيروت، لبنان، ج٣، ص٤٠٠.

الدرجة العليا من التسامح تركوهم يفعلون كل ما يعتقدون أنه حلال فى دينهم، وتركوهم وما يدينون[١].

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى علاقة المسلمين مع أهل الذمة فى بلدنا الحبيب مصر فقد ثبت أن أهل الذمة يملكون الضيعات الكبيرة من زمن قديم، ولم يكونوا طبقة فى المجتمع المصرى وإنما كانوا فى قلب وشرايين الجسم المصرى، فكان منهم الفنانون والصناع ، والتجار، والمزارعون ، وأصحاب الأراضى الزراعية، والعلماء والأطباء والشعراء والمؤرخون والمثقفون، وأصحاب المهن، وكل هؤلاء كانوا يمارسون شعائرهم الدينية والعقدية فى حرية تامة دون اعتداء أو ضغط على أحد.

ومما يضاف إلى ذلك أيضاً: أن المسلمين وأهل الذمة فى مصر الإسلامية اشتركوا جميعاً فى الأعياد الدينية والقومية، ولم يختلف أهل الذمة عن المسلمين حتى فى العادات والتقاليد، أو فى المدن السكنية أو ما شابه ذلك .. وكل هذا يدل على عظمة الإسلام وتعاليمه فى تطبيق مبدأ التسامح مع غير المسلمين"[٢].

حقاً : إن الدين الإسلامى دين العقلانية والموضوعية، والالتزام، ودين الحرية الفكرية والدينية ولذا كان معظم الذين دخلوا فى الإسلام ..

---

(١) راجع: صحيفة اللواء الإسلامى عدد الخميس الموافق ٨ من جمادى الآخر ١٤١٣هـ ، ٣ من ديسمبر سنة ١٩٩٢م، و د/ إبراهيم سليمان "معاملة غير المسلمين فى دولة الإسلام"، ص١١٥ – ١١٦، باختصار.

(٢) راجع: ساويرس: سير الآباء البطاركة، ط عام ١٩٦٨م ، نشر الجمعية القبطية بالقاهرة، ص ٧-٩، بتصرف.

دخلوه بسبب تطبيق مبدأ التسامح، والكلمة الطيبة اللينة، والإقناع وإعمال الفكر أضعافاً مضاعفة[1].

ونحن كمسلمين يجب علينا أن نؤمن كل الإيمان بأنه لا إكراه فى الدين، ولو شاء الله عز وجل لهدى الناس جميعاً، ولكنها حكمة يعنمها الخلاق العليم قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِين﴾ [يونس:٩٩].

يجب علينا ان نؤمن كل الإيمان بأن الله عز وجل أمرنا بالدعوة إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن، وعدم مجادلة أهل الكتاب بالعنف والغلظة، فلنا ديننا ولهم دينهم، والله تعالى هو الذى يفصل بين عباده يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، فلا اعتراض لنا على أهل الكتاب .. وليس لهم حق الاعتراض علينا من حيث العقيدة وكل منا يدعوا إلى دينه بالحجة والبرهان والعقل والمنطق بعيداً عن المهاترات والأحقاد والضغائن والاعتداء .. وإلى الله عاقبة الأمور.

يجب علينا أن نؤمن بأن أهل الكتاب لهم أن يتحاكموا إلى كتبهم وأن نتركهم وما يدينون لهم مالنا، وعليهم ما علينا، فلا نتدخل فى أحوالهم الشخصية ولا فى طقوس عبادتهم، وأن كنائسهم لها حرمتها فلا يعتدى عليها. ولعل الأسس والأدلة التاريخية التى سقناها فى ثنايا البحث

---

(١) راجع: محمود النبوى الشال: كتاب "الإسلام رسالة السماء" ط الأولى، عام ١٩٧٨م، القاهرة، ص٥٦، بتصرف.

لخير دليل وأوضح شاهد على ما كان عليه الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون فى معاملتهم لأهل الكتاب، وغيرهم.

هذا هو منهج الإسلام العادل فى تطبيق (مبدأ حرية العقيدة وحق الإنسان فيها دون فرض أو إكراه) .. ومن ثم كانت المعاملة الطيبة والعلاقات الحسنة، والصلات الزاكية عنواناً أكيداً على نقاء المعدن وصفاء الفطرة، وقرب الإنسان من ربه، وأمته.

وحقوق المواطنين وواجباتهم التى يتبادلونها ويتعاملون على الوفاء بها وتنميتها فريضة محتومة لا ينبغى التغاضى عنها، ولا يجوز أن يحوم حولها إفراط ولا تفريط .. فما من أمة شاع منها احترام الحقوق وأداء الواجبات إلا استمسك عودها، وقويت شوكتها وعز أمرها، وعجز عدوها عن النيل منها.

وواجب المسلمين فى كل دولة إسلامية مراعاة حقوق إخوانهم من غير المسلمين وأن يعلم الجميع أن الإسلام ورسوله ﷺ، قد عاملا غير المسلمين معاملة حسنة على أنهم شركاء فى الوطن .. ومن هنا نتيقن تماماً أن الإسلام سهل، وسمح لا يحمل الحقد والكراهية والعدوان لمخالفته فى العقيدة.

والله من وراء القصد

التســـامح الإســـلامي

بين النظرية والتطبيق

أ.وليد عبد الماجد كساب(*)

تمهيد :

التســـامح قيمة إسلامية رفيعة ، دعا إليها القرآن الكريم والسنة النـــبوية المطهــرة، وكان الرسول ﷺ مثالاً عملياً وتطبيقياً لهذا الخلق النبـــيل، حيث جاءت حياته مليئة بالمواقف المشهودة التي وقف التاريخ أمامها مكبراً ومسجلاً لها بحروف نورانية مشرقة.

وقد كان للتسامح أثره البالغ في الحضارة الإسلامية حين تعامل المســـلمون بـــه كواجـــب ديني تحتمه الشريعة؛ ففتحت كثير من البلاد بمساعدة أهلها أنفسهم؛ ودخل آخرون في دين الله افواجاً جراء التسامح والمعاملة الحسنة الطيبة التي رأوها من المسلمين.

إن الـــتاريخ ليحفل بكثير من المواقف التي تبرز جوهر الإسلام الناصـــع مـــنذ عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، ثم الخلافات الإسلامية المتعاقـــبة علـــى حكم البلاد والعباد، وهذا ما حدا بالمنصفين من غير المســـلمين أن يسجلوا شهاداتهم حول سماحة الإسلام مؤكدين على تلك الحقيقة التي تميز بها الإسلام فسعد بها العالم كثيراً.

لقد كفل الإسلام للإنسان حقوقه دون النظر إلى عقيدته، قبل أن يعـــرف العالم ما يسمى " بالليبرالية " أو " منظمات حقوق الإنسان "،

(*) باحث بالأمانة العامة لرابطة الجامعات الإسلامية .

وقبل أن تدعو الولايات المتحدة الأمريكية إلى كتابها أو " الديمقراطية " التي يسهر الخلق جراها ويختصمون.

ولـــيس غريـــباً أن ينشـــغل المسلمون في شتى بقاع المعمورة بالحديـــث عـــن التسامح الإسلامي وعلاقة الإسلام بالآخر، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي جاءت لتضع المسلمين وحدهم – ودون غـــيرهم – فـــي قفص الاتهام، ولم لا ؟! فقد أصبح الإسلام هدفاً يسعى الغرب لوأده والقضاء عليه، وأضحى العدو التقليدي الأول بعد أن تهاوت الشيوعية فكانت نسياً منسياً.

ومما يؤسف له أن الهجوم السافر الذي يتعرض له المسلمون قد أفقدهـــم كثـــيراً من توازنهم؛ فالحكومات الإسلامية تعروها هزة عنيفة لمجـــرد ذكر كلمة " الجهاد " بل إن ذلك يعد سبباً كافياً لمعاقبة كل من يدعـــو إلى الجهاد بأية وسيلة، سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة، وكثير من علماء الدين يختزلون تعاليم الدين ومقاصد الشريعة في مفهوم التســـامح وقبول الآخر، تحت مظلة " تطوير الخطاب الديني " متغافلين عـــن كثير من حقائق هذا الدين الخاتم، وأصبح " الخنوع " و " الهوان " هو اللغة الرسمية عند الحديث عن الإسلام، ففي الوقت الذي ينتهك فيه ســـتر المســـلمين فـــي العـــراق وفلسطين وأفغانستان وغيرها من بلاد الإســـلام؛ نجد من يحدثنا عن " التسامح " و " العفو " مع أن الإسلام قد أمر أهله بالأخذ بأسباب القوة والمنعة حتى يتمكنوا من الدفاع عن دينهم وعقيدتهم، ويستطيعوا أداء شعائرهم.

ومن عجب أن يشار إلى المسلمين بأصابع الاتهام دون غيرهم، وكـــأن الإرهاب وترويع الآمنين صناعة إسلامية، وجزء لا ينفصل من

الديـــن الإســـلامي، في الوقت الذي يغفل فيه جانب الإرهاب الغربي- الأمريكـــي قديمـــاً وحديثاً، وعندما وقعت الأحداث الدامية الأخيرة في أســـبانيا ســـارعت تلك القوى إلى إلصاقها بالمسلمين بالرغم من وجود العديـــد مـــن الحركات الانفصالية الإرهابية التي تمتلأ بها الساحة في أسبانيا وعلى رأسها حركة " إيتا " الانفصالية .

إن الإعـــلام العالمي الذي يملك بنو صهيون ناصيته ويمتطون صـــهوة جـــواده يقـــرن بين الإسلام والقتل وسفك الدماء؛ أما الهندوس والصـــرب فليســـوا إرهابيين؛ وأما مذابح البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا، والألوية الحمراء في إيطاليا، فهذا ليس إرهاباً.

لقـــد أثبتـــت الأحداث المتلاحقة التي ضربت الكثير من أرجاء العالم أن الإرهاب لغة عالمية لا تقتصر على قطر دون قطر، أو جماعة دون أخرى، كما لا يمكن حصرها في نطاق ضيق أو حيز محدود، لذا فمـــن الجـــور أن يقصر الإرهاب على المسلمين، وكل العالم يعاني من سكرات الإرهاب.

إن خروج ثلة من أهل الإسلام على روح الإسلام التي دعا إليها ديـــنهم لا يعنـــي أن الإسلام يدعو إلى الإرهاب؛ ولا يمكن أن يحسب هؤلاء على الدين، فلكل قاعدة شواذ، وإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يقال عـــن المســـيحية واليهودية مثل ذلك، بالرغم من الأعمال الوحشية التي يقوم بها بعض المنتمين لهما، وهل يعيب المنهج سوء التطبيق ؟! بالطبع لا !! إنما العيب فيمن يطبقون المنهج.

لقد أصبح لزاماً على المسلمين أن يعيدوا ترتيب أوراقهم في هذا الوقـــت الذي تدعو فيه كل أمة إلى كتابها؛ فالإسلام مستهدف من القوى

المعاديـــة التـــي لا ترقـــب في مؤمن إلّا ولا ذمة، وصدق الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله : " لقد مضت عليهم أربعة عشر قرناً، وهم يفترون علـــى الإسلام الكذب ويضعون أمام دعاته السدود، ويعملون في رقاب أهلـــه السـيف إذا أســـعفتهم القوة، وينسجون لهم الدسائس إذا أعجزهم الضعف ... فماذا جنوا بعد هذا كله ؟ لا الإسلام مات .. ولا قرآنه باد .. ولا أمته هلكت".

وفـــي هـــذه الدراسة المتواضعة نتحدث عن التسامح كسمة من ســـمات الحضـــارة الإســـلامية، وكقيمة من القيم العالية التي دعا إليها الإســـلام، مسترشدين في ذلك بما أنزله المولى عز وجل في كتابه وبما أثـــر عـــن النبـــي ﷺ وصـــحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم، ثم بشهادات غير المسلمين حول سماحة ذلك الدين الحق.

والله ندعو أن يهدينا سواء السبيل

الفصل الأول

التسامح فى المنظور القرآنى

"السماحة" فى اللغة :

السـماحة فى اللغة تعنى التساهل والتيسير، فقد جاء فى مختار الصحاح "السماح والسماحة: الجود، سمح به سماحاً وسماحة: ، وسمح له: أعطاه"[1]، "وسمح" سموحاً وسماحاً وسماحة: جاد وأعطى، أو وافق علـى ما أريد منه ، وامرأة سمحة وقوم سمحاء ونساء سماح، وسامحه بكـذا: أعطـاء وتسامح وتسمح، وأصله الاتساع ومنه يقال: فى الحق مسمح أى متسع ومندوحة عن الباطل .."[2].

التسامح بين اليهودية والمسيحية :

لم تكن الدعوة إلى التسامح بدعاً ابتدعه الإسلام حين جاء الرسول ﷺ بالرسالة الخاتمة، وإنما دعت إليه الرسالات السابقة، فقد وردت فى التوراة نصوص كثيرة تحث اليهود على السماحة واليسر مثل: "افتح يديك لأخيك المسلم والفقير فى أرضك" وأيضاً ذلك التوجيه "لا تظلموا الأرملة ولا اليتيم ولا الغريب ولا الفقير".

ولكن اليهود لم يستمعوا لما جاءهم من الحق كعادتهم أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣]، بل تمادوا فى غيهم فحرفوا التوراة،

---

(١) أبو بكر الرازى: مختار الصحاح ص ٣٢٠ (بتصرف)، ط دار الحديث، ب. ت.

(٢) الفيومى: المصباح المنير ص ١٠٩ (بتصرف)، ط مكتبة لبنان.

ووضعوا بها من التعاليم الفاسدة الكثير والكثير فقالوا: "لا تُقرض أخاك بربا، أما الأجنبى فأقرضه بربا"(٣).

أما عن المسيحية فقد ورد فى الإنجيل: "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر"، وفى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: "فإن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقه، لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه، لا يغلبنك الشر، بل اغلب الشر بالخير"(٤).

وقد بينت المسيحية أجر التسامح ومثوبته مع الآخرين يقول المسيح عليه السلام، طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون(٥)، وقد عُرف المسيح عليه السلام بسماحته التى فاقت كل الحدود البشرية.

الإيمان بالرسالات السابقة :

نادى القرآن الكريم المسلمين باحترام أصحاب الرسالات الأخرى والإيمان برسلها، وجعل ذلك واجباً، بل وشرطا من شروط الإيمان قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بالله ومَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦].

قال ابن كثير "أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أُنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصَّلاً، وما أنزل على الأنبياء

---

(٣) محمد عطية الإبراشى: عظمة الرسول ص:٣، ط مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م.

(٤) محمد عطية الإبراشى: الإسلام دين الإنسانية، ط مكتبة مصر سنة ١٩٨١م.

(٥) المرجع السابق.

المتقدمين مجملاً، وقد نص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم"(٦).

ويقول القرطبى "كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل"(٧).

وفى موضع آخر يقول تعالى داعياً إلى الإيمان بكل الرسل دون أدنى تفرقه بينهم ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. قال ابن كثير "فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره ولا رب سواه ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ"(٨).

يقول تعالى مخاطباً المسلمين: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنبكوت:٤٦].

قال مجاهد ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم عن أداء الجزية، وقوله تعالى ﴿وَقُولُوا آمَنَّا﴾ يعنى إذا

---

(٦) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١/١٨٧)، دار التراث العربى للنشروالتوزيع.

(٧)القرطبى: الجامع لأحكام القرآن (١/٦٣١)، ط دار الغد العربى.

(٨) ابن كثير: مرجع سابق (١/٣٤٢).

أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه لا نُقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به مجملاً معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً ولا مبدلاً ولا مؤولاً"[٩].

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز "فما الإسلام بالنسبة إلى الرسالات السابقة إلا متمماً لها ومكملاً لها، فإذا أخذنا كلمة الإسلام بمعناها القرآنى نجد أن الإسلام فى لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص وإنما هو اسم للدين المشترك الذى هتفت به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء هكذا نرى نوحاً يقول لقومه ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]، ويعقوب يوصى بنيه ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة:١٢٣]، وأبناء يعقوب يجيبون أباهم ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٣].

وموسى يقول لقومه ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، والحواريون يقولون لعيسى ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢]، بل إن فريقاً من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:٥٣].

وبالجملة نرى اسم الإسلام عاماً يدور فى القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر الإسلام، ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم فى سلك واحد ويجعل منهم

---

(٩) ابن كثير: (٣/٤١٦).

جميعاً أمة واحدة لها إله واحد، كما لها شريعة واحدة[10] ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾ [الأنبياء:٩٢].

وحسب تعبير الشيخ محمد الغزالى – رحمه الله تعالى – فقد كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة فى بينان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة أنها أكملت البنيان، وملأت ما بقى فيه من فراغ، وأنها فى الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذى يمسك أركان البناء، وصدق الله حين وصف خاتم أنبيائه بأنه ﴿جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:٣٧].

وحين وصف اليوم الآخير من أيامه بأنه كان إتماماً للنعمة وإكمالاً للدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣] وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية فى جملتها أحسن تصوير حيث يقول: "إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[11].

إنها إذن سياسة حكيمة لتربية البشرية تربية تدريجية لا طفرة منها ولا ثغرة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا تعارض[12].

---

(١٠) نقلاً عن الشيخ محمد الغزالى : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ص ٦٧ –٦٨ بتصرف.

(١١) رواه البخارى فى كتاب المناقب، باب خاتم النبيين.

(١٢) راجع: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام مرجع سابق ص ٧٣ (بتصرف)، دار نهضة مصر – الطبعة الثانية ٢٠٠٠م.

كفل الإسلام الحنيف حرية العقيدة لغير المسلمين، وأمنهم على نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، وأعطاهم ما للمسلمين من حقوق، بل وأعفاهم من بعض الواجبات، وجاءت الآيات فى هذا الشأن كثيرة، يقول تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]. "أى لا تُكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام، فإنه بين واضح جلى دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحداً على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته ودخل فيه على بينه"(١٣).

وليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه على الناس فرضاً حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، فنبى الإسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هى محاولة فاشلة، بل هى مقاومة لسنة الوجود ومعاندة لإرادة رب الوجود ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[يونس:٩٩]، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة والمبرمة فى القرآن فى قاعدة حرية العقيدة "لا إكراه فى الدين" ومن هنا رسم القرآن أسلوب

---

(١٣) ابن كثير: مرجع سابق (٣٠/١).

الدعوة ومنهاجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة فى رفق ولين ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، على أن الإسلام لا يكتفى منا بهذا الموقف السلمى السلبى، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه، بل يتقدم بنا إلى الأمام فيرسم لنا خطوات إيجابية يكرم بها الإنسانية فى شخص المسلمين(١٤).

المجادلة بالتى هى أحسن :

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله وعباده المؤمنين بالإحسان فى معاملة أهل الكتاب، ومجادلتهم بالتى هى أحسن ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥].

قال ابن جرير "وهو ما أنزل عليه من الكتاب والسنة والموعظة بالحسنة، أى بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، "وجادلهم بالتى هى أحسن" أى من احتاج فيهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]. فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٤].

حسن قتال المشركين :

---

(١٤) الشيخ محمد الغزالى : مرجع سابق ص ٧٦.

ومن سماحة القرآن دعوته إلى قتال المشركين دون الاعتداء على الحرمات بغير حق قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩١].

ولقد رأينا المسلمين لم يحاربوا إلا ليصدوا الاعتداء عليهم وعلى دولتهم وعقيدتهم، ووجدانهم لم يستلوا سيوفهم إلا عند اليأس من مسالمة الأعداء، ولم يتجاوزوا فى حربهم حد الدفاع والترهيب إلى الانتقام الحاقد، كما فعل الغرب مع المسلمين فى أسبانيا وفى البلقان، وكما يفعل الأمريكان والبريطانيون ومن على شاكلتهم بالمسلمين فى العراق وغيره من بلاد الإسلام.

والمسلمون يجنحون إلى السلم إذا ما جنح لها الأعداء، ولا يخربون العمران، ولا يهدمون الكنائس، ولا يرغمون أحداً على الدخول فى الدين، وليس أدل على ذلك من أن الإسلام قد ذاع فى مكة، وكان النبىْ ﷺ وأتباعه قلة لا يملكون من القوة ما يردون به عن أنفسهم الأذى والعدوان، ثم استمر ينتشر بقوته الذاتية فى كل عصر حتى فى العصور التى ضعف فيها المسلمون.

كان ذلك عرضاً موجزاً لبعض التوجيهات القرآنية التى تدعو إلى التسامح مع أهل الكتاب والكفار، وبلا شك فهى بعض من كل؛ فالقرآن الكريم مليء بالتوجهات الربانية التى تدعو إلى هذا الخلق القويم.

الفصل الثانى

صور من سماحة النبى ﷺ وخلفائه الراشدين

سماحة الإسلام مع أهله :

دعا الإسلام إلى السماحة كفضيلة من الفضائل التى شرعت للتيسير على الخلائق ورفع الحرج عنهم، يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

وقد نهى المولى عز وجل عن التشدد والرهبانية التى تقيد النفس بقيود شديدة الوثاق، كما كانت المسيحية عند ظهور الإسلام، وعاب علىٰ أهل الكتاب تشددهم فى العبادات فقال عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

والتيسير على الناس ورفع الحرج عنهم أمر رئيس ومعتبر فى الشريعة الإسلامية، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى مواضع عدة، منها قوله سبحانه: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

ومن مظاهر السماحة فى العبادات إسقاط فريضة الحج عمن لا يستطيع أداءها، يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا﴾ [آل عمران:٩٧].وقد أقر الرسول الكريم ﷺ دعوة القرآن للتسامح والتيسير فى العبادات، لما لذلك من مردود إيجابى على الحياة الإنسانية بشتى جوانبها، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: "لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك

بقاياهم فى الصوامع والديارات" ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد:٢٧].

وفى توجيه نبوى آخر يشير ﷺ إلى ضرورة التيسير فى كل الأمور، يقول ﷺ: "إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة"(١٥).

وتبدو سماحة الإسلام بجلاء فى الرخص التى أعطاها الشارع سبحانه وتعالى للناس لرفع الحرج عنهم، والرخصة هى ما شرعه الله من الأحكام للتخفيف عن المكلفين فى الأصول غير العادية، أى الأحكام الاستثنائية التى شرعت لوجود عذر شاق يمنع المكلف من الالتزام بالحكم الأصلى، ولا تطبق إلا فى أحوال خاصة، كرخصة الفطر للمسافر والمريض فى شهر رمضان، لما فى الصوم مع السفر أو المرض من المشقة الشديدة والضيق الزائد، وأيضاً رخصة أكل الميتة أو شرب الخمر لمن أشرف على الهلاك من شدة الجوع أو العطش ولم يجد إلا ميتة أو الخمر للمحافظة على حياته.

إذن فقد قرر القرآن قاعدة مهمة هى قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فالأصل فى التشريع هو التيسير وهو المقصد الأسمى للشريعة الإسلامية الغراء.

وكان الرسول ﷺ أعظم أسوة فى سماحة النفس، ولين الطبع، وسهولة المعاملة ، وكمال الخلق فكان بأخلاقه صلوات الله صاحب

---

(١٥) رواه البخارى.

دعوة عملية للتحلى بهذا الخلق، وبسائر فضائل الأخلاق ومحامد السلوك، ولم يكن صلوات الله عليه نكداً ولا صعباً ولا فظاً ولا غليظاً، ولذلك أثنى الله عليه بالرقة ولين الجانب ولطف الحديث، إذ نفى عنه الفظاظة وغلظ القلب، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، أى لست يا محمد فظاً فى أقوالك ومخاطباتك للناس، ولا غليظ القلب عديم الرقة واللطف والرحمة فى واقع حالك الخلقى، وليس من شأنك ولا من شأن أى داع يدعو إلى الله أن يكون فظاً أو غليظاً لأن هذين منفردان يجعلان الناس ينفضون من حول الداعى إلى الله"(١٦).

تسامحه مع غير المسلمين :

ومن كمال سماحته ﷺ تسامحه مع غير المسلمين استجابة لأمر الله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة:٦].

يقول الدكتور دراز "فأنت تراه لا يكتفى منا بأن نجير هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفل لهم الأمن فى جوارنا فحسب، ولا يكتفى منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديهم طريق الخير وكفى؛ بل يأمرنا بأن نكفل لهم كذلك الرحمة – الحماية والرعاية فى انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذى يأمنون فيه كل غائلة، ثم هل ترى أعدل وأرحم وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية التى لا تكفل لغير المسلمين فى بلاد الإسلام حرية عقائدهم أو عوائدهم وحماية أشخاصهم

---

(١٦) الميدانى: الأخلاق الإسلامية وأسسها (٤٦٢/٢) دار القلم ط٥ – ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

وأموالهم وأعراضهم، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من حقوق العامة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" هل ترى أوسع أفقاً وأرحب صدراً، وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولى والنقاش السلمى بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية التى لا تكتفى فى تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية وبين الأمم التى لا تدين بدينها ولا تتحاكم إلى قوانينها"(١٧).

لقد بلغت السماحة برسول الله مبلغاً عظيماً فكما كان سمحاً فى حياته كان كذلك سمحاً فى حروبه مع أعدائه، فكانت هذه التعاليم والأوامر لأصحابه المحاربين لا تخريب ولا تدمير، ولا تعرض لغير المقاتلين من الأطفال والنساء والرهبان ولا تشويه ولا تمثيل بجثث القتلى.

أخرج مسلم عن سليمان بن بريرة عن أبيه رضى الله عنهما قال "كان رسول الله إذا أمرّ أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال "اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله" اغزوا ولا تغلوا (أى لا تأخذوا شيئاً من غنائم الحرب قبل قسمتها) ولا تغدروا ولا تمثلوا (لا تشوهوا القتيل بتقطيع بعض أجزائه على سبيل الانتقام والتشفى) ولا تقتلوا وليداً)(١٨).

هكذا كانت سماحة الرسول فى حروبه بل نجده يغضب غضباً لم يغضب مثله قط لقتل امرأة فى إحدى المعارك، فقد روى الإمام البخارى

---

(١٧) الشيخ محمد الغزالى مرجع سابق ص٧٧.

(١٨) رواه مسلم فى كتاب الجهاد والسير – باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها.

عن الليث عن نافع أن عبد الله رضى الله عنه أخبره "أن امرأة وجدت فى بعض مغازى النبى مقتولة، فأنكر رسول الله قتل النساء والصبيان"(١٩).

وكذلك نهى رسول الله عن قتل المعاهد بغير جرم، فعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله: "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً"(٢٠).

وتتجلى سماحة النبى ﷺ فى أعظم صورها فى صلح الحديبية حين اشترطت قريش على النبى شروطاً قاسية، منها: من جاء من عند المسلمين إلى قريش لا ترده قريش، ومن جاء إلى المسلمين بغير إذن وليه رده المسلمون، وقبل النبى ﷺ شرطهم الجائر لحكمة رأها وغضب بعض الصحابة للشرط، وما كادوا ينتهون من توقيع المعاهدة حتى جاء أول امتحان للوفاء، إذ وصل مسلم من مكة اسمه أبو جندل بن سهل فاراً من أذى قومه، وألح على الرسول فى أن ينضم إلي المسلمين؛ لكن الرسول رده وفاء بعهده، فقال أبو جندل: إنهم سيعذبوننى؛ فقال له الرسول: "اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً" إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم"(٢١).

---

(١٩) رواه البخارى كتاب الجهاد والسير باب قتل الصبيان فى الحرب.

(٢٠) رواه البخارى كتاب الجزية – باب من قتل معاهداً بغير جرم.

(٢١) انظر: سيرة ابن هشام (٣٦٧/٣) ت– طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية.

وإن سماحة الرسول لتتجلى فى أعظم صورها حتى فى الموقف المهتاج الذى تجنح فيه النفوس إلى الانتقام، فقد كانت الأمم تعامل أسراها معاملة العدو البغيض، فتقتلهم أو تبيعهم أو تسترقهم، أما الرسول فقد عامل أسرى بدر معاملة حسنة ذلك بأنه وزع الأسارى السبعين على أصحابه وأمرهم أن يحسنوا إليهم، فكانوا يفضلونهم على أنفسهم فى الطعام، وهكذا أرسى النبي ﷺ هذه القواعد الإنسانية فى معاملة الأسرى وذلك قبل أن يعرف العالم هيئة الأمم ومجلس الأمن، وغيرها.

وكذلك حين دخل النبى مكة يوم الفتح قادراً قال لقريش "ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين".

وصدق الله إذ يقول: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر﴾ [آل عمران١٥٩].

نماذج

من سماحة الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم)

كان أبو بكر الصديق – وهو الخليفة الأول للنبى ﷺ يقتفى أثر النبى ﷺ فى تعامله مع غير المسلمين سواء من المشركين أم من أهل الكتاب، فيروى أنه ﷺ عندما أرسل الجيوش إلى الشام أمر عليهم يزيد بن أبى سفيان، وقال له: إنى موصيك بعشر خلال: لا تقتل أرملة ، ولا صبياً ، ولا كبيراً هرماً ولا تقطع شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة، ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تغرقن نخلاً، ولا تحرقنه، ولا تغلل ولا تجبن"[٢٢].

وسار الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ على نفس الدرب الذى سار عليه أبو بكر الصديق فى الإحسان إلى أهل الكتاب والمشركين تأسياً بالنبى ﷺ، فقد روى عنه أنه أرسل رسالة إلى المجاهدين يوصيهم فيها بالضعفاء وعدم الاعتداء على حرمات الآخرين فقال" بسم الله، وبالله، وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، وما النصر إلا من عند الله، فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرماً ولا أرملة ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات"[٢٣].

---

(٢٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء/ ٩٧.

(٢٣) أبو يوسف الخراج بتصرف.

وكان رضى الله عنه حريصاً على رعايا الإسلام على اختلاف عقائدهم ، فقد روى أنه رأى عجوزاً يسأل الناس، فعلم أنه يهودى، فقال له ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله وأكرمه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، وأمر فرفعت عنه الجزية وعن أمثاله وأوصى له براتب من بيت مال المسلمين.

وحدث أن ابن عمرو بن العاص – والى مصر – ضرب قبطياً، فاشتكاه القبطى لعمرو بن الخطاب فبعث عمر إلى عمرو وابنه فاستقدمهما من مصر إلى المدينة، وأمر القبطى أن يقتص من ابن عمرو فضربه كما ضربه، ولما أخذ القبطى بحقه قال له عمر: اضرب أباه على صلعته ، فتعجب القبطى من ذلك قائلاً: قد أخذت بحقى ممن ضربنى ، فقال عمر: بل اضربه. فوالله ما ضربك إلا بسلطان أبيه .. إنها عظمة الإسلام التى لا تدانيها عظمة، وعدله الذى لا يضارعه عدل.. فأى نظام هذا الذى يعطى أحد الرعية حقه فى القصاص من رئيس الدولة بهذا الشكل الذى رأيناه، فأى ديموقراطية تلك التى يتشدق بها الغرب، ويسهر الخلق جراها ويختصموا، وهل تقاس بهذه العظمة .. تلك إذن قسمة ضيزى.

كما كان رضى الله تعالى عنه حريصاً على أن يمارس أهل الكتاب طقوسهم فى أماكن عبادتهم، ولما دخل إلى كنيسة بيت المقدس

وحان موعد الصلاة خرج فصلى على السلم، فسئل عن ذلك؛ فقال: خشيت أن أصلى داخلها فيتخذها المسلمون مسجداً بعد ذلك(٢٤).

ولم يكن على بن أبى طالب ليحيد عن طريق رسول الله ﷺ ولا عن طريق أصحابه – رضوان الله تعالى عليهم – فقد ورد أنه كتب إلى الأشتر النخعى خطاباً يوصيه فيه بأهل أحد البلاد المفتوحة يقول فيه "إن عقدت بينك وبينى عدو عقداً، أو ألبسته منك ذمة، فحط عبدك بالوفاء، وأرح ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دونما أعطيت؛ فإنه ليس من فرائض الله شئ الناس أشد اجتماعاً عليه مع تفرق أهوائهم من تعظيم الوفاء بالعهود، فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك"(٢٥).

وفى رسالة أخرى يبعث بها إلى واليه نجده – كرم الله وجهه – يرسم له طريقة التعامل مع رعايا الدولة الإسلامية، فيحذره من إساءة معاملتهم ، ويوصيه بأن يجمل فى طلب الخراج، وأن يراعى الجانب الإنسانى الذى يتميز به الإسلام، يقول كرم الله وجهه : "إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاءً ولا صيفاً، ولا رزقاً يأكلونه، ولا دابة يعملون عليها، ولا تضربن أقدامهم سوطاً واحداً فى درهم، ولا تقمه على رحلة فى طلب درهم، ولا تبع لأحد منهم عرضاً (متاعاً) فى شئ من الخراج، فإنما أُمرنا أن نأخذ منهم العفو، فإن أنت خالفت ما أمرتك به، يأخذك الله به دونى، وإن بلغنى عنك غير ذلك عزلتك، قال الوالى: إذن أرجع

---

(٢٤) يراجع كتاب الأستاذ نظمى لوقا: عمر بن الخطاب .. البطل والمثل والرجل، ط دار الحرية، ١٩٨٦م ، و أيضاً كتاب الدكتور إدوارد غالى الذهبى: النموذج المصرى للوحدة الوطنية، ط مكتبة الأسرة ١٩٩٨م.

(٢٥) د. جعفر عبد السلام: الإسلام وحقوق الإنسان، ص١٩٧ .

إليك كما خرجت من عندك، فقال له الإمام على كرم الله تعالى وجهه: وإن رجعت كما خرجت"(٢٦).

وأثر عنه كرم الله وجهه – أيضاً أنه قال عن هؤلاء "إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ، ودماؤهم كدمائنا".

وحدث أن يهودياً شكاه لعمر بن الخطاب – وكان قاضياً فى عهد أبى بكر الصديق – فقال له عمر: قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك؛ ففعل وعلى وجهه علامات التأثر، فلما فصل فى القضية قال لعلى: أكرهت أن تساوى خصمك: قال: لا؛ لكنى تألمت لأنك ناديتنى بكنيتى؛ فلم تسونى باليهودي؛ فخشيت أن يظن أن العدل قد ضاع بين المسلمين.

حقاً إنها صور مشرقة من أخلاق هذا الدين الخاتم، ولا غرو في ذلك، فالله سبحانه وتعالى قد ختم بها الرسالات وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

---

(٢٦) أبو يوسف: الخراج ص ١٤، ١٥ (بتصرف).

الفصل الثالث

شبهات حول سماحة الإسلام

الشبهة الأولى : انتشار الإسلام بحد السيف :

يرى القائلون بهذه الفرية أن الإسلام انتشر بحد السيف، وأن أتباعه عملوا على نشره دون النظر إلى الوسيلة ومدى تعارضها مع الإنسانية وحقوق الإنسان، عملاً بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وفيما يلى نبين خطأ هذه الفرية، وكذب أصحابها، ونفضح نواياهم السيئة.

إن القرآن الكريم: مليئ بالتوجيهــات الربــانية التى تنادى بحرية العقيدة فى الإسلام فيقول: "فمن شــاء فليؤمن ومن شــاء فيكفر " [الكهف: ٢٩] وكذلك فإن القرآن وضع الأسس التى ينبغى أن تكون عليها الدعوة إلى الله يقول سبحانه: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة" [النحل:١٢٥] والنبى صلى الله عليه وسلم نجده فى جميع حروبه يوصى جنوده بألا يقتلوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة ولا راهباً.

ولم يثبت أنّ النبى ﷺ أكره أحداً من المشركين على الدخول فى الإسلام رغم تمكنه من المشركين- وخاصة يوم الفتح - ولو كان ذلك من شأنه لأعمل فيهم السيف، ولعل مجرد بقاء الكنائس والمعابد حتى الآن لدليل على تسامح الإسلام الذى ساد العالم شرقاً وغرباً، ولو أراد المسلمون استئصال اليهود أو النصارى ما كان ذلك عليهم بعسير.

تقول المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكة" فى كتابها "الله مختلف تماماً" "لقد لعب التسامح العربى دوراً حاسماً فى انتشار الإسلام، وذلك

على العكس تماماً من الزعم القائل بأنه قد انتشر بالنار والسيف وقد أصبح هذا الزعم من الأغاليط الجامدة ضد الإسلام"[٢٧].

أما توماس أرنولد فيقول "إذا نظرنا إلى التسامح الذى امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الإسلامى، ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحول الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق"[٢٨].

ثم يواصل قائلاً "إن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح، ومن المعروف أن جيوش المسلمين لم تذهب إلى جنوب آسيا أو غرب أفريقيا، إنما انتشر الإسلام هناك عن طريق التجار والمتصوفة من المسلمين بعد أن رأى الناس عملياً سلوكهم وأخلاقهم وحسن معاملتهم، فأقبلوا على الإسلام دون أن يرغمهم أحد على الدخول فيه.

وحسب ما يرى الأستاذ العقاد فإن نظرة عابرة إلى البلاد الإسلامية لتكفى لتقرير وقائع التاريخ فى هذه المسألة، فإن أكثر البلاد الإسلامية عدداً هي أقل البلاد غزوات إسلامية، وإن المسلمين لم يحاربوا قط فى صدر الدعوة إلا مدافعين أو دافعين لمن يصدون الدعوة بالموعظة الحسنة من ذوى السلطان، وكذلك كانت وقائعهم مع مشركى

---

(٢٧) نقلاً عن د. محمود حمدى زقزوق الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢م ص ٤٥، ٤٦ ..

(٢٨) د. محمد إبراهيم الجيوشى التسامح فى الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٩٦م، ص٥٧ .

الجزيرة العربية كما كانت وقائعهم مع الفرس والروم .. وقبل غزو فارس بزمن طويل كان كسرى يبعث بعوثه فى طلب صاحب الدعوة الإسلامية حياً أو ميتاً، لأنه خاطبه داعياً إلى الإسلام.

إن من لا يفهمون الإسلام فهماً شمولياً صحيحاً يحسبون أن الإسلام يوجب القتال الدائم على المسلم كما يوجب الصلاة والصيام وسائر الشعائر المفروضة، ويعدون هذه الفريضة بدعة بين الفرائض الدينية أو بين الفرائض الإنسانية التى قررتها دساتير الأخلاق فى أمور العقائد على الإجمال، وحقيقة الأمر أن الأساس الأخلاقى الذى قامت عليه فريضة الجهاد – فضلاً على الأساس الدينى – يستقيم مع كل أساس سليم لكل اعتقاد قويم.

فماذا تقول شريعة الأخلاق فى الواجب على الإنسان نحو عرضه؟ أن الإسلام لا يقول شيئاً غير الذى يقوله هداة الوطنية والشرف حين ينكرون على المرء أن ينكص عن الجهاد فى سبيل وطنه وكرامته وعرضه، ويعيبون عليه أن سالم من يقاتلونه فى سبيل حريته وحرية بلاده، وليس بالدين الصالح للإيمان به دين ينزل بحرية الضمير عن مرتبة الحريه فى الموطن والمعاش(٢٩).

الشبهة الثانية: لقد جاء المسلمون كمستعمرين :

يروج بعض الحاقدين على الإسلام أقوالاً لا يصدقها عقل ولا يؤيدها نقل وهم يحاربونه بكل ما أوتوا من قوة.

---

(٢٩) عباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص١١٠ (بتصرف) ط دار الرشاد الحديثة، ، ب.ت.

يقولون بأن فتح البلاد يعتبر استعماراً لها، وذلك أمر عجيب، فالاستعمار كما هو معروف على مر التاريخ هو استغلال واستنزاف لثروات البلد المحتل دون النظر إلى أهل هذه البلاد أو إلى مدى حاجتهم إلى تلك الثروات، وهذا ما فعلته بريطانيا فى مصر، وفرنسا فى الجزائر، وإيطاليا فى ليبيا، وهذا لم يكن من شأن الفتوحات الإسلامية.

وإذا ما عقدنا مقارنة بين الاحتلال البريطانى لمصر والفتح الإسلامي للأندلس يتبين لنا الفرق واضحاً جلياً بينهما، فقد عمل الاحتلال البريطانى منذ أول يوم جاء فيه إلى مصر على استنزاف ثرواتها، بينما جاء الفتح الإسلامى إلى أسبانيا فجعلها جنة فيحاء، فكانت أول بلد أوروبي – وربما فى العالم – تضاء شوارعها ليلاً فى الوقت الذى كانت أوروبا تعج بالخرافات الكنسية،أما من الناحية الشرعية فقد رفض الإسلام الجهاد بهدف الحصول على الغنائم فيقول تعالى: ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ [الأنفال:٦٧]، وقد سئل النبى ﷺ عن رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضاً من الدنيا – أى يبتغى الحصول على الغنائم – فقال "لا أجر له" وكرر ذلك ثلاث مرات".

وكذلك فإن القول بأن الفتوحات الإسلامية كانت توسعات استعمارية ذات طابع اقتصادى يعد عملية إسقاط لما فعله الاستعمار الغربى بالبلاد الإسلامية فى العصر الحديث على فتوحات المسلمين فى السابق وبينهما بون شاسع !! ولذلك نجد فى التاريخ والسير أن خالد بن الوليد عقد معاهدة مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة سجل فيها نصاً يقول : "فإن منعناكم (أى قمنا بحمايتكم) فلنا الجزية وإلا فلا" وقد

حدث بالفعل أن قام المسلمون برد الجزية إلى أهل المدن المفتوحة فى الشام حينما شعروا أنهم غيرقادرين على توفير الحماية اللازمة لهذه المدن وكان ذلك فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب حينما حشد الإمبراطور هرقل جيشاً ضخماً لحرب المسلمين، وشغل المسلمون حينذاك بالمعركة مع جيش الروم، وكتب القائد العربى لأهل هذه المدن "إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم"(٣٠)، إذن فلا داعى لما يقول المغرضون الذين لا يبرحون يهاجمون الإسلام فى ميادينه وبين أهله.

الشبهة الثالثة : حد الردة انتهاك العقيدة :

المرتد فى الشرع : هو الراجع عن دين الإسلام، وقد تكون بالألفاظ أو الأفعال أو الاعتقادات، فتكون باللفظ حين يتكلم المسلم بكلمة الكفر كسب الله ورسوله، وبالأفعال بأن يأتى المسلم عملاً يدل على استخفافه بالدين، وقد يكون بالاعتقاد بأن يعتقد المسلم أموراً باطلة متناقضة لما عرف من الدين بالضرورة مثل إنكار وجود الله أو اليوم الآخر، وأن محمداً ليس خاتم النبيين.

ويشترط لوقوع الردة أن يكون المرتد عاقلاً مختاراً، فلا تعتبر ردة الصبى والمجنون ولا السكران الذى زال عقله بالسكر ولا المكره إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان.

---

(٣٠) الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك (مرجع سابق) ص ٤٩ .

وعقوبة المرتد القتل لقوله ﷺ: "من بدل دينه فاقتلوه" وهذا الحكم يشمل الرجل والمرأة عند الجمهور، أما الحنفية فيرون أن المرتدة لا تقتل بل تحبس حتى تتوب، وعن إمهال المرتد قبل قتله قال الجمهور بوجوبه، ويعرض الإسلام عليه لعله يرجع عن ردته، فإن أبى قُتل، وقال الحنفية الإمهال ليس واجباً، بل مستحباً"[٣١].

إن الذين يعيبون على الإسلام تطبيقه لحد الردة قد تغافلوا حقيقة مهمة جداً، وهى أن جريمة "الخيانة الكبرى" توجب الإعدام فى الكثير من دول العالم، هذا عن خيانة القواعد والقوانين الوضعية، فما بال هؤلاء لا ينطقون عند تسفيه الشرائع الإلهية.

إن قتل المرتد فى الشريعة الإسلامية ليس لأنه ارتد فقط ، ولكن لإثارته الفتنة والبلبلة وتعكير النظام العام فى الدولة الإسلامية، أما إذا ارتد بينه وبين نفسه دون أن ينشر ذلك بين الناس ويثير الشكوك فى نفوسهم، فلا يستطيع أحد أن يتعرض له بسوء فالله وحده هو المطلع على ما تخفى الصدور"[٣٢].

---

(٣١) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، الرسالة ١٩٨٧، ص٢٨٩ .

(٣٢) الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك(مرجع سابق)، ص ١٣٠.

الفصل الرابع

من شهادات غير المسلمين

والآن نود – بشئ من الإيجاز – أن نورد شهادات غير المسلمين حول سماحة هذا الدين الحنيف ، وهى بلا شك أدلة دامغة واضحة لا تحتمل التأويل والتشكيك، وإنما هى بمثابة براهين جلية، لأنها ما نبعت من لدن المسلمين أنفسهم، ولكن قالها غيرهم ممن أعجبوا بهذا الدين وعظمته وسماحته على مر العصور والقرون.

بعد سنوات قضاها القائد الفرنسى الفذ "نابليون بونابرت" فى محاولة يائسة للهيمنة على مقاليد الأمور فى كثير من بقاع الأرض، ومنها بعض الدول الإسلامية، جال بخاطرة تساؤل أرّقه وأجهده : ما هو السبب الفعال فى الانتشار السريع للدين الإسلامي، يقول: "إننا إذا طرحنا جانباً الظروف العرضية التى تأتى بالعجائب، فلابد أن يكون من وراء انتشار الإسلام سر لا نعلمه، وأسباب مجهولة مكنته من الانتصار السريع على المسيحية، وربما كانت العلة المجهولة أن هؤلاء القوم الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى قد صهرتهم قبل ذلك حروب داخلية عنيفة وحماسة غلابة، وربما كانت هذه العلة شيئاً آخر من هذا القبيل"(٣٣).

ولا شك أن بونابرت – وهو القائد الذى أفرط المؤرخون والساسة فى وصف ذكائه ودهائه، قد غفل – وربما تغافل – عن حقيقة كبرى، وهى أن لسماحة الإسلام دوراً كبيراً فى انتشاره بين الشعوب

(٣٣) د. أحمد الحوفى: سماحة الإسلام، ص ٨٥، (بتصرف).

على اختلاف ثقافاتها ومشاربها، والشهادات حول هذا الموضوع كثيرة بحيث يضيق المقام عن ذكرها، لذا سنكتفى بذكر نزر يسير منها وكل هذه الشهادات جاءت من الغرب وإليه ترجع، فتلك بضاعتهم ردت إليهم.

ويرى " غوستاف لوبون " أن أهم ما تميز به المسلمون الفاتحون هو دماثة خلقهم وتسامحهم الذى فاق كل الحدود، وكان لذلك كبير الأثر على البلاد التى فتحوها، فيقول: "إن اظهر ما يتصف به الشرقيون – المسلمون – هو أدبهم الجم وحلمهم الكبير وتسامحهم، ووقارهم فى جميع الأحوال، وقد أورثهم إيمانهم طمأنينة روحية، فى جين تورثنا أمانينا احتياجاتنا المصنوعة قلقاً دائماً يبعدنا عن تلك السعادة"(٣٤).

أما " روبرتسون " فيرى أن المسلمين تفردوا دون غيرهم بحرصهم الكبير على دينهم وتوصيله لكل من يحيا على ظهر الأرض فى إطار من السماحة والمشروعية، يقول: "إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة على دينهم وروح التسامح نحو أتباع الديانات الأخرى، وأنهم مع امتشاق الحسام تركوا لمن لا يرغب حرية التمسك بدينه"(٣٥).

كما شهد البطريق "عيشوبايه" بأن "العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون: "إنهم ليسوا أعداء

---

(٣٤) مجلـة مـنار الإسلام، الإمارات – جمادى الأولى – سنة ١٤١٨م، ص١١٧ وما بعدها.

(٣٥) المرجع السابق.

للنصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويقرون قديسنا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا"[٣٦].

ويقرر الإنجليزي السير "توماس أرنولد" في كتابه القيم " الدعوة إلى الإسلام " حقيقة واضحة وهى أن القبائل المسيحية قد اعتنقت الإسلام عن رغبة جامحة لا عن إرغام وإكراه فيقول: "لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام قد اعتنقت عن اختيار وإرادة حرة، ، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات المسلمين الشاهد على هذا التسامح"[٣٧].

ثم يبرهن على ذلك بقوله: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن اضطهاد وظلم قصد منه استئصال الدين المسيحى، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها فرديناند .. دين الإسلام من أسبانيا، أو التى جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتى مذهباً يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا، أو بتلك السهولة التى ظل اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة.

ومن وجهة نظره الخاصة يرى "توماس أرنولد" أن بقاء دور العبادة المسيحية دليل "واضح على ما يقوله: "ولهذا فإن مجرد بقاء

---

(٣٦) الشيخ محمد الغزالى: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام (مرجع سابق) ص ٤١ بتصرف.

(٣٧) د. أحمد الحوفى: سماحة الإسلام، الهيئة العامة للكتاب، ص٨٣، ط ١٩٩٧م.

الكنائس حتى الآن ليحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة المسلمين فى الدول الإسلامية بوجه عام من تسامح"(٣٨).

أما "زيغريد هونكه" "فقد نقلت فى كتابها" شمس العرب تسطع على الغرب" مقولة لأحد ملوك الفرس الذين بهرتهم سماحة هذا الدين، ويسمى "كيروس" يقول: إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخربين يدمرون البلاد ويقتلون العباد وينشرون الفساد"(٣٩).

ويرى "القس ميشو" أن القرآن له الأثر الكبير فى أهله، فقد أمرهم بالجهاد وفى نفس الوقت أوجب عليهم التسامح فى كل الأحوال، كما يرى أنه من العار على الشعوب المسيحية ألا تتعلم السماحة من المسلمين فيقول: "إن القرآن الذى أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وقد أعفى الرهبان والبطارقة وخدمهم من دفع الجزية وحرم قتلهم لعكوفهم على العبادة".

ثم يواصل قائلاً: " .. ومن المؤسف ألا تقتبس النصرانية من المسلمين التسامح الذى هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أى معتقد عليهم إكراهاً"(٤٠).

وقد قارن "ميشو" فى كتابه "سماحة دينية فى الشرق" – بين الفتح الإسلامى للقدس فى عهد عمر والاستيلاء المسيحى على القدس، كما عاب على المسيحيين أنفهسم عدم تحليهم بروح التسامح فقال: "لما استولى عمر على مدينة أورشليم لم يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً؛

---

(٣٨) منار الإسلام – شعبان ١٤١٨هـ – ص١١٧.

(٣٩) منار الإسلام – جمادى الأولى سنة ١٤١٨هـ. ص ١١٧ وما بعدها.

(٤٠) المرجع السابق.

ولكن لما استولى المسيحيون قتلوا المسلمين ولم يشفقوا، وأحرقوا اليهود إحراقاً .. ولقد أيقنت من تتبعى للتاريخ أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع فى المعاشرة عند الغلظة، وحسن مسايرة ولطف ومجاملة، وهو إحساس لم يشاهد فى غير المسلمين إذ ذاك ، خصوصاً أن الشفقة والرحمة والحنان كانت إمارات ضعف عند الأوروبين، وهذه حقيقة لا أرى وجهاً للطعن فيها"(٤١).

وكان للتسامح الإسلامى فى البلدان المفتوحة أثر كبير فى انطباعات الشعوب المجاورة لهذه البلاد، حتى إن أغلبها تمنت الفتح الإسلامى، ووجدت فيه المجأ والملاذ، يقول "ترومان بينزا": "لما فتح العثمانيون القسطنطينية كان أكثر الشعب المسيحى فى عشية الكارثة ينفرون من أى اتفاق مع كنيسة روما الكاثوليكية أشد من نفورهم من الاتفاق مع المسلمين، ومازال الناس يرددون دون الكلمة المشهورة التى نطق بها رئيس دينى فى بزنطية فى ذلك الحين وهى: "إنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية فى مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية"(٤٢).

وقد شهدت أوروبا نفسها صوراً مشرقة من تسامح المسلمين فتعامل المسلمون – كدأبهم – مع أهل الأندلس معاملة طيبة ، وكفلوا لهم حرية العقيدة، بل قلدوهم الوظائف الرفيعة، والمناصب العليا.

---

(٤١) مختارات من سماحة الإسلام ، د. أحمد الحوفى (بتصرف) ص ٨٣ وما بعدها.

(٤٢) هذا ما نقله د. أحمد الحوفى عن كتاب "الأمبراطورية البزنطية" لفورمان بيتز.

يقول الكونت "هنرى كاسترى": فى كتابه "الإسلام": وإذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى استقرار حكومته استقراراً منظماً رأيناه أكثر محاسنة، وأنعم ملمساً، فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحى؛ بل بقيت روما نفسها حرة فى المراسلات مع الأساقفة الذين كانوا يرعون الأمة الخالية.

ثم ينقل عن "دوزى" قوله: "لقد أبقى المسلمون سكان الأندلس على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف، حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش، وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين، وحصل بينهم زواج كثير.

"وكم من أندلسي بقى على دينه، ولكن أعجبته حلاوة التمدن العربى، فتعلم اللغة وآدابها، وصار القسس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة، والتعلق بأشعار الظافرين، وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها، لذلك لما اضطهدت أوروبا اليهود لجأوا إلى خلفاء الأندلس فى قرطبة؛ لكن لما دخل الملك كارلوس سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين، ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً إلا أعملوا السيف فى يهودها ومسلميها، وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجيراً وملجأ فى الإسلام، فإن كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين"[٤٣].

يقول "ميخائيل الأكبر" بطريق أنطاكية بعد أن استعرض سلسلة الاضطهادات التى وقعت على أيدى هرقل ورجاله: "وهذا هو السبب فى

---

(٤٣) د. أحمد الحوفى: مرجع سابق ص٨٣، وما بعدها بتصرف.

أن إله الانقام الذى تفرد بالقوة والجبروت والذى يديل دوله البشر كما يشاء – فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع – لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل (المسلمين) من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم.

".. ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدت فى حوزتها، ومع ذلك لم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام"(٤٤).

يقول " أدوالدويلى" أحد رهبان القديس "دييس" القسيس الخاص للويس السابع فى الحرب الصليبية الثانية ١١٤٨م – يقول عن إسلام ثلاثة آلاف صليبي وانضمامهم إلى جيوش المسلمين: "لقد جفوا إخوانهم فى الدين، كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار (يعنى المسلمين) الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا إلى صفوف الأتراك .. آه ... إنها لرحمة أقسى من الغدر، لقد منحوهم الخبز، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قدموه لهم من خدمات"(٤٥).

أما شهادة الدكتور " فيليب حتى" فهى شهادة من نوع خاص لسببين أولهما: أنه مسيحى وثانيهما: أنه عربى تجرى فى عروقه دماء العروبة، فهو يمتدح الإسلام ويرى جدارته باستيعاب كل من يعيش تحت سمائه فى إطار من العدل والتسامح، فيعرف الإسلام بأنه "حضارة

---

(٤٤) نقلاً عن الدكتور محمد إبراهيم الجيوشى مرجع سابق ص٤٧ (بتصرف)

(٤٥) المرجع السابق.

عامة شاملة تنظم كل من يعيش تحت سمائها فى حرية وصفاء ، ويعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة تربطهم روابط المحبة والأخوة"(٤٦).

وبعد ...

فهذا .. نزر يسير من شهادات غير المسلمين من وغيرهم من الذين وقفوا على حقيقة هذا الدين السمح، بعظمته التى لا تضاهيها عظمة، وبإنسانيته التى ليس لها حدود .. فلم يستطع هؤلاء أن يكتموا شهادتهم أو أن يسلبوه حقه .. فأنطقهم الله الذى أنطق كل شئ.

ومعذرة إن كنت أكثرت من الاقتباسات أو أطلت فى بعضها.

فتلك أقوالهم ... وهذه بضاعتهم

---

(٤٦) منار الإسلام شعبان ١٤١٨هـ (مرجع سابق) ص١١٧، وما بعدها.

ثانيا : الوثائق

وثيقة المدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

١. هــذا كــتاب مــن محمــد النبــي [رسول الله] بين المؤمنين والمســلمين مــن قريش و[أهل] يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

٢. أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣. المهاجــرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يَفْدُون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥. وبــنو الحــارث [بن الخزرج] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولــى، وكــل طائفــة تفــدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٦. وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٧. وبــنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٨. وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٩. وبــنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٠. وبـــنو النَّبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١١. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ؛ وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٢. وأن المؤمنين لا يتركون مفرَحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٣. وأن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم ، أو إثما ، أو عدوانا ، أو فساداً بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

١٤. ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

١٥. وأن ذمة الله واحدة يجبر عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

١٦. وأنـــه من تبعنا من يهود فإنه له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم .

١١. وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال فى سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم .

١٨. وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

١٩. وأن المؤمنين يُبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠. وأن المؤمنيـــن المتقين على أحسن هدى وأقومه ،وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

٢١. وأنــه مــن اعتــبط مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قود به ، إلا أن يرضـــى ولـــي المقتول [بالعقل] وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحلُّ لهم إلا قيام عليه .

٢٢. وأنــه لا يحــل لمؤمــن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤوية ، وأن من نصره ، أو آواه ، فــإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

٢٣. وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد .

٢٤. وأن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢٥. وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين ديــنهم ، مواليــيهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته.

٢٦. وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٧. وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

٢٨. وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

٢٩. وأن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف .

٣٠. وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

٣١. وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته .

٣٢. وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٣. وأن لبني الشُّطَيْبة مثل ما ليهود بني عوف ، وأن البر دون الإثم .

٣٤. وأن موالي ثعلبة كأنفسهم .

٣٥. وأن بطانة يهود كأنفسهم .

٣٦. وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ، وأنه ينحجز على ثَأرِ جُرحٍ، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبَرِّ هذا .

٣٧. أ) وأنَّ على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

٣٧. ب) وأنه لا يأثم امرءٌ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم .

٣٨. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٣٩. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٤٠. وأنّ الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم .

٤١. وأنه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها .

٤٢. وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يُخاف فساده ، فإن مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .

٤٣. وأنه لا تُجار قريش ولا من نصرها .

٤٤. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

٤٥. أ) وإذا دعـوا إلـى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين .

٤٥. ب) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قِبَلهم .

٤٦. وأن يهـود الأوس مواليـهم وأنفسـهم علـى مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبَرَّه .

٤٧. وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه مَن خرج آمنٌ ومن قعد آمنٌ بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جارٌ لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

هدنة الحديبية

١. باسمك اللهم .

٢. هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

٣. واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض .

٤. [علـــى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة مـــن قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله] .

٥. علـــى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه .

٦. وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وإنه لا إسلال ولا إغلال .

٧. وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ، ومن أحب أن يدخـــل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . – فتواثبت خزاعة فقالوا : " نحن في عقد محمد وعهده " وتواثبت بنو بكر فقالوا : " نحن في عقد قريش وعهدهم " .

٨. وأنت ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عـــام قـــابل ، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب : السيوف في القُرُب ، ولا تدخلها بغيرها .

٩. [وعلى أن هذا الهدي حيث ما جئناه ومحله فلا تقدمه علينا] .

١. أشـــهدَ على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمود بن مسلمة، ومِكرز بن حفص (و ...؟ من المشركين) . وعلى بن أبي طالب وكتب .

معاهدة مع أهل بيت المقدس

روى الأزدي : لما نزل عمر رضى الله عنه وهم بأيليا، بعث أبو عبيدة إلـــى أهل أيليا أن « أنزلوا إلى أمير المؤمنين، فاستوثقوا لأنفسكم » . فـــنزل إليه ابن الجعد (ن : ابن الجعيد) فى ناس من عظمائهم . فكتب لهـــم عمـــر رضى الله عنه كتاب الأمان والصلح ... وولّى أبو عبيدة عمـــرو بن العاص فلسطين . (ولم يرو الأزدي كتاب عمر) ، ولكن ذكره الطبري كما يلى :

صـــالح عمـــر أهل أيليا ــ (يعنى بيت المقدس) ــ بالجابية، وكتب لهم فيها الصلح ، لكل كورة كتاباً واحداً ؛ ما خلا أهل أيليا . وأما سائر كتبهم فعلى كتاب لُدّ على ما سيأتى بعد هذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل أيليا من الأمان : أعطـــاهم أمانـــاً لأنفســـهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها . إنه لا تُسكَن كنائسهم ولا تهدَم ، ولا يُنتقص منها ولا مـــن حـــيزها ، ولا مـــن صليبهم ولا من شيء من أموالهم . ولا يُكَـــرهون على دينهم ولا يضارّ أحد منهم ، ولا يسكن بأيليا معهم أحد اليهود .

وعلـــى أهـــل أيليا أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن . وعلـــيهم أن يخرجوا منها الروم واللُّصوتَ . فمن خرج منهم فإنه آمنٌ علـــى نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن قام منهم فهو آمنٌ . وعليه مـــثل ما على أهل أيليا من الجِزية . ومن أحب من أهل أيليا أن يسير بنفســـه ومالـــه مع الروم ، ويخلي بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم .

ومـــن كـــان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعد، وعلـــيه مثل ما على أهل أيليا من الجزية ؛ ومن شاء سار مع الروم ، ومـــن شـــاء رجـــع إلـــى أهله . فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم .

وعلـــى ما في هذا الكتاب عهد الله وذِمّة رسوله ، وذِمّة الخلفاء وذِمّة المؤمنين ، إذا أعطوا الذي عليهم من الجِزية .

شـــهد علـــى ذلـــك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وكتب وحضر سنة خمس عشرة .

معاهدته صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران

هـــذا مـــا كتب محمدٌ النبي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأهـــل نجـــران : إذا كان عليهم حُكمُه في كل ثمرةٍ ، وفي كل صفراءَ وبَيضـــاءَ ورقيقٍ ، فأفضلَ ذلك عليهم ، وتَرَكَ ذلك كلّه لهم ، على ألفي حُلّـــة من حلل الأواقي : في كل رجب ألف حلة ، وفي كل صفر ألف حلـــة ، كل حلة أوقية من الفضة . فما زادت على الخراج ، أو نقصت عـــن الأواقي فبالحساب . وما قضوا من دروع ، أو خيلٍ ، أو ركاب ، أو عروض أخذ منهم بالحساب . وعلى نجران مؤنة رسلي ، ومتعتهم ، ما بين عشرين يوما فما دون ذلك ، ولا تحبس رسلي فوق شهر .

وعلـــيهم عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، إذا كان كيد باليمن ومعرة . وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع ، أو خـــيلٍ أو ركابٍ ، أو عروضٍ ، فهو ضمين على رسلي ، حتى يؤدوه إليهم .

ولنجران وحاشيتها ، جوار الله وذمة محمدٍ النبي رسول الله على أموالهم ، وأنفسهم ، وملتهم ، وغائبهم ، وشاهدهم وعشيرتهم ، وبِيَعِهم وكـــل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . لا يُغيَّر أسقف من أسقفيته ولا راهـــب مـــن رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم ربية ولا دم جاهلـــية . ولا يحشرون ، ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش . ومن سال منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين.

ومـــن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة . ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وعلـــى ما في هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمدٍ النبي رسول الله حـــتى يأتي الله بأمره ، ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم ، غير مثقلين بظلم .

شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف مـــن بـــنى النضر ، والأقرع بن حابس الحنظلي ، والمغيرة بن شعبة وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبى بكر .

(وقـــال يحيى بن آدم : وقد رأيت كتاباً في أيدي النجرانيين ، كانـــت نسخته شبيهةً بهذه النسخة ، وفي أسفله : وكتب على بن أبو [كذا] طالب ، ولا أدري ماذا أقول فيه) .



الفهـــرس

الموضوع رقم الصفحة

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٢٥٤٦

المركز العلمى للطباعة والكمبيوتر
ياسر الكرار
نسخ كمبيوتر - طباعة (اوفست - ماستر)
كل ما يخص الطباعة تجده بين يديك
الادارة : ٢٠ ش ترعة الجلاد - القصيرين الزاوية الحمراء
المطابع : ٤ ش محمود القار من المنياوى القصيرين - الزاوية الحمراء
☎ : ٤٢٤٠٤٦٥ محمول : ٠١٠/٢٥١٠٩١١